# الدرر السنية

## في أخبار السلالة الإدريسية

تأليف
الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم الشيخ الإمام
السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي
المولود بمستغانم بالجزائر سنة ١٢٠٢هـ
المتوفى بالجغبوب بليبيا سنة ١٢٧٦هـ

طبع بمعرفة وزارة الإعلام والثقافة

بإذن من حفيد المؤلف السيد محمد إدريس المهدي السنوسي
ملك ليبيا حفظه الله

١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

# الدرر السنية

في أخبار السلالة الإدريسية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين

الحمد لله الواجب الوجود ، المسبب الفضل والجود ، المنزه عن الصاحبة والولد ، المنفرد في ملكه الواحد الأحد ، الذى اصطفى محمداً من خلاصة خلقه فكان فيهم أشرف نسباً وأحقه ، فقد صح عنه فى صحيح الأخبار ، مما رواه الثقات الأخيار : (إن الله اصطفى من بنى آدم العرب ، واصطفى من العرب كنانة ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار من خيار) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السادات الأبرار ، مظهرى دينه ومبلغيه سائر الآفاق وأقاصى الأقطار ، وخصوصاً أهل بيته الفحول ، بنى علىّ بضعة البتول ، ينابيع الدين ومنبع المكارم ، فاتحى قواعده ومانحى أفنانه العظائم ، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين ، ما تعاقب اختلاف الملوين .

أما بعد ، فاعلم أنه ورد فى علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب آثار وآيات وأخبار ، مما هو متعارف مشهور ، وفى كتبه مدون مسطور. قال المقريزى فى كتابه قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، ما نصه : لا خفاء أن معرفة علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب من الأمور المطلوبة ، والمعارف المندوبة ، لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية ، فقد وردت الشريعة باعتبارها فى مواضع منها العلم

بنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه النبي القرشي الهاشمى الذى كان بمكة وهاجر منها إلى المدينة وتوفى بها ، فإنه لا بد لصحة الإيمان من معرفة ذلك ولا يعذر مسلم فى الجهل به وناهيك بذلك ، ومنها التعارف بين الناس حتّى لا ينسب أحد إلى غير آبائه ولا ينسب إلى سوى أجداده ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ) ، ولولا معرفة الأنساب لفات إدراك ذلك وتعذر الوصول إليه . ومنها اعتبار النسب فى الإمامة التى هى الدعامة العظمى .

فقد حكى الماوردى فى الأحكام السلطانية الإجماع على كون الإمام قرشيّاً ثم قال : ولا اعتبار بضرار حيث شاع فجورها [1] فى جميع الناس فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الأئمة من قريش . قال أصحابنا الشافعيون فإن لم يوجد قرشي اعتبر كون الإمام كنانيّاً من بنى كنانة أو من خزيمة ، فإن تعذر اعتبر كونه من بنى إسماعيل عليه السلام فإن تعذر اعتبر كونه من بنى إسحاق ، فإن تعذر اعتبر كونه من جرهم لشرفهم بصهارة إسماعيل عليه السلام فقد نصوا أن الهاشمى أولى بالإمامة من غيره من قريش ، فلولا المعرفة بعلم النسب ما ثبت ، وتعذر حكم الإمامة العظمى التى بها عموم صلاح الأمة وحماية البيضة وكف الفتنة وغير ذلك من المصالح .

ومنها اعتبار النسب فى الزوج والزوجة عند الشافعى حتّى لا يكافىء الهاشمية والمطلبية غيرهما من قريش ، ولا يكافىء القرشية غيرها من العرب ممن ليس بقرشي ، ولا يكافىء القرشية والكنانية غيرهما من

---

(١) كذا فى الأصل . والذى فى نسخة الأحكام السلطانية المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٧ ( ولا اعتبار بضرار حين شد فجورها فى جميع الناس ) .

العرب ممن ليس بكنانى ولا قرشى على الأصح ، وفى اعتبار النسب فى العجم أيضاً وجهان أصحهما الاعتبار ، فإذا لم يعرف النسب تعذرت هذه الأحكام . ومنها مراعاة النسب الشريف فى المرأة المنكوحة فقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لدينها وحسبها ومالها وجمالها » ، فراعى النبى صلى الله عليه وسلم فى المرأة الحسب وهو شرف الآباء . ومنها جريان الرق على العرب فى أحد قولى الشافعى رضى الله عنه وموافقته ، فإذا لم يعرف النسب تعذر ذلك ، إلى غير ذلك من الأحكام الجارية هذا المجرى . ثم ليعلم أنه قد ذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء كالبخارى إلى جواز الرفع فى الأنساب احتجاجاً بعمل السلف ، فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى علم النسب بالمقام الأرفع والجانب الأعلى ، وذلك أدل دليل وأعظم شاهد على شرف هذا العلم وجلالة قدره .

وقد حكى صاحب الريحان والريعان عن أبى سليمان الخطابى أنه قال : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه نسابة فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فوقف على قوم من ربيعة فقال : ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة . قال أى ربيعة أنتم من هامها أم من لهازمها ؟ قالوا بل من هامها العظمى ، قال أبو بكر الصديق : من أيها ؟ قالوا من ذهل الأكبر ، قال أبو بكر : فمنكم عوف الذى يقال لا حر بوادى عوف ؟ قالوا لا ، قال فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء ؟ قالوا لا ، قال فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا لا ، قال فمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا لا ، قال فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا لا ، قال فلستم بذهل الأكبر بل ذهل الأصغر ؟ فقام إليه غلام من شيبان يقال له دغفل حين ثقل وجهه . فقال إن على سائلنا أن نسأله ، يا هذا إنك قد سألت فأخبرناك ولم نكتمك شيئاً من خبرنا ،

فمن الرجل ؟ قال أبو بكر : أنا من قريش قال بخ بخ أهل الشرف والرئاسة فمن أي الفريقين أنت ؟ قال من ولد تيم بن مرة قال الفتى أسكت والله من سواء النقرة فمنكم قصى الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعاً ؟ قال لا ، قال فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ؟ قال لا ، قال فمن أهل الندوة أنت ؟ قال لا ، قال فمن أهل السقاية أنت ؟ قال لا ، قال فمن أهل الحجابة أنت ؟ قال لا ، واجتذب أبو بكر زمام ناقته فقال الفتى بيتاً (١) :

صادف درء السيل درءاً يدفعه يهيضه حيناً وحيناً يصدعه

أما والله يا أخا قريش لو ثبت لأخبرتك أنك من رعيان قريش ولست من الذوائب . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فتبسم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يا أبا بكر لقد وقعت من الغلام الأعرابى على باقعة » قال : يا أبا الحسن ما من طامة إلا فوقها طامة . ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة النسابة الذى يضرب به المثل في معرفة النسب ، قدم مرة على معاوية بن أبى سفيان فى خلافته فاختبره فوجده رجلاً عالماً فقال بم نلت هذا يا دغفل ؟ فقال : بقلب عقول ، ولسان سؤول ، وآفة العلم النسيان .

وممن اشتهر فى معرفة الأنساب أيضاً ابن الكيس من بنى عوف بن سعد بن تغلب بن وائل وفيه يقول مسكين بن عامر :

فحكم دغفلا وارحل اليه ولا تدع المطى الى الكلال
او ابن الكيس النمرى زيداً ولو امسى بمنخرق السمال

وقد صنف فى علم الأنساب جماعة من جملة العلماء وأعيانهم كأبى عبيد القاسم بن سلام والبيهقى وابن عبد البر وابن حزم وغيرهم ، وذلك

(١) هنا فى الأصل بياض والقصة مروية فى كتاب « سبائك الذهب » المطبوع ببغداد وعنه أخذنا البيت .

دليل شرفه ورفعة قدره . والحامل لأصل التاريخ ما قاله الشيخ جار الله المكى فى تحقيق الصفا فى تراجم بنى الوفاء ما نصه : وقد ورد فى الأثر عن سيد البشر أنه قال : من أرخ مؤمناً فكأنما أحياه ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره ، ومن زاره استوجب رضوان الله ، وحق على المزور ان يكرم زائره اه . فاذا كان هذا فى مطلق مؤمن فكيف بخاصة الخاصة وأهل الفضل والمزايا المتراصة فكيف بمن يتعلق بسفينة النجاء، ويم البركات ومقاليد الشفاعات كهذه الرسالة الموضوعة فى نبذة سريةمن احوال بنى صاحب الرسالة ذوى الفضل والجلالة والعلا حائزى قصب السبق فى كل ملا المسماة « بالدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية » ، وما فى حكمها من السادات العلوية ممن له ولاية ودولة فى الأقطار المغربية مشتملة على مقدمة وست دول :

الدولة الأولى : الفاسية وما فى إيالتها .

الدولة الثانية : التلمسانية وما فى نواحيها .

الدولة الثالثة : الغمارية وما فى حكمها .

الدولة الرابعة : السبتية وما فى حكمها .

الدولة الخامسة : الأندلسية وما فى حكمها .

الدولة السادسة : الصحراوية وما فى حكمها .

وسترى لكل واحدة بياناً شافياً على ما عند صاحب القرطاس والمغرب، وما فى العبر لابن خلدون التونسى وما فى سلاسل الفصول لابن خلدون التلمسانى ، وما فى عمدة الطالب نسب على بن أبى طالب لابن عنبة .

فالمقدمة وفيها فصلان :

## الفصل الأول

## وفيه نوعان

الأول : فى أصل النسبة الإدريسية وتنوع أفنانها فى أقطار الأرض وانتشار سلطانها واختصاص كل بأركانها . قال فى المغرب كصاحب العمدة ما معناه : إنه لما انتقلت الولاية من بنى أمية لبنى العباس ووصلت النوبة لهارون الرشيد حصل منه من الأذية فى حق العلويين ما هو معلوم من العباسيين حيث جار الرشيد فى حقهم جوراً عظيماً ، وأراد قطع دابرهم بالكلية فهربوا منه إلى الأراضي البعيدة من طاعته ، فممن هرب منه من الشرفاء إلى المغرب الأقصى مولانا إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن شهد مجامع الحسين بن على العابد صاحب فخ ، فلما قتل الحسين فى جماعته بفخ فر إدريس وأخوه سليمان ومولاه راشد ابن مرشد القرشى أخوه من الرضاعة ، فلم يزل يجد السير حتى وصل مدينة تلمسان فثبت أخوه سليمان وذهب معه راشد إلى تلمسان وأقام بها وسيأتى خبره ، ثم انتقل مولانا إدريس إلى طنجة فلم يجد ما يوافقه بها فرجع إلى زرهون فوجد عبد المجيد بن مصعب سلطاناً ، وكانت الخلافة له فى قبائل البربر ، فقام فخلع عبد المجيد عليه الخلافة وترك له الحكم وعقد له البيعة وتركه حاكماً ، وكان عنده ثلاثة من الوزراء عبد المجيد بن مصعب الأوربى ، وأخوه عمر بن مصعب الأوربى الزرهونى ، وراشد بن مرشد القرشى ، ثم تزوج مولاى إدريس بنت

وزيره عبد المجيد واسمها كنيزة المرضية ذات حسن وجمال وبهاء وكمال واعتدال ، فحملت منه بالنجل السعيد وهو مولاى إدريس الأصغر .

وسبب موت مولاى إدريس الأكبر أنه أتاه سليمان بن جرير النبرى ثم الزميرى من الشرق بأمر هارون الرشيد بقارورة من المسك مسمومة، ولم يزل يجد السير حتى وصل إليه وفرح به ، ثم دفع له القارورة المسمومة فشمها فطلع السم فى خياشمه فمات ، رحمة الله عليه ، عام سبعة وسبعين فى القرن الثانى .

وفى العمدة أن الإمام إدريس شهد مجامع الحسين بن على العابد صاحب فخ ، فلما قتل الحسين انهزم حتى دخل المغرب فسم هناك بعد أن ملك وقد وصل إلى زرهون وطنجة ومعه مولاه راشد ودعاهم إلى الدين فأجابوه وملكوه ، فاغتم لذلك الرشيد حتى امتنع من النوم ودعا سليمان بن جرير الرقى متكلم الزيدية وأعطاه سماً فورد سليمان بن جرير إلى إدريس متوسماً بالذهب فسر إدريس بن عبد الله ، ثم طلب غرة فوجد خلوة من مولاه راشد فسقاه السم وهرب فخرج راشد خلفه فضربه على وجهه ضربة منكرة وفاته وعاد ، وقد مضى إدريس لسبيله. قال ولما مات إدريس وضعت المغاربة التاج على بطن زوجتهأم إدريس وولدته بعد أربعة أشهر بعد موت أبيه ، قال قد كان داود بن القاسم الجعفرى ، أحد كبراء العلماء وممن له المعرفة بالنسب ، حاضراً قصة إدريس بن عبد الله وسمه وولادة إدريس بن إدريس قال : كنت معه بالمغرب فما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجهاً . وقال على الرضى بن موسى الكاظم رضى الله عنهما إدريس بن إدريس بن عبد الله من شجعان أهل البيت والله ما ترك فينا مثله . وقال أبو هاشم داود بن القاسم بن

إسحاق بن عبد الله بن جعفر الطيار : أنشدني إدريس بن إدريس لنفسه شعراً :

لو مال صبري بصبر الناس كلهم ... لكل في روعتي وظل في جزعي
بان الأحبة واستبدلت بعدهم ... همّاً مقيماً وسلماً غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم ... على ضميري مجبول على الفزع
تأوي الهموم إذا حركت ذكرهم ... إلى جوارح جسم دائم الجـــزع

ثم بعد أن وضعت أمه حملها بعد تمامه سمته على اسم أبيه إدريس ، وقام به وزراء أبيه وتكفل به راشد بن مرشد القرشي حتى إذا بلغ ثمانية أعوام ، وقيل اثنتي عشرة سنة وبلغ الحلم وقرأ جميع العلوم وأمر ببنيان المدينة البيضاء وأعانه الله على بنيانها لقوله صلى الله عليه وسلم ، حين عرج على المعراج فرأى بقعة بيضاء تتلألأ نوراً فقال له : « يا حبيبي يا جبريل ما هذه البقعة البيضاء التي تتلألأ نوراً فى المغرب ؟ قال له جبريل عليه السلام : هذه مدينة لأمتك فى آخر الزمان تسمى بفاس ينبع العلم من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها » ، ثم زوجته أمه الحسنى بنت سليمان بن محمد النجاعى ، وكانت أمه كاملة العقل والحياء والدين، تابعة للكتاب والسنة. وروى أن إدريس كان لا يفعل شيئاً حتى توافقه الحسنى ، ثم توفى رحمة الله عليه بعد ما استقر بالمدينة . وكان سبب موته حبة من العنب الزواعى وسيأتى لذلك مزيد بيان ، وخلف اثنى عشر ولداً : محمد وأحمد وقاسما وعمر وعمران وعلياً وعيسى ويحيى وحمزة وعبد الله وداود وكثير . قال فى العمدة : وأعقب إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض عدة رجال منهم محمد وعمران والقاسم وأحمد وعيسى وعمر وداود ويحيى وعبد الله وحمزة ويحيى وعلى . وقيل إنه أعقب غير هؤلاء أيضاً . ولكل منهم ممالك ببلاد المغرب

هم فيها ملوك إلى الآن .

قال فى رفع التدليس فى ذرية الإمام إدريس بعد أن ذكر الأئمة الاثنى عشر ما نصه : فتولى الإمام محمد بن إدريس الخلافة بعد موت أبيه وبقى بنوه بفاس متوارثين الملك بعده كما سيأتى ، وقسم على إخوته المذكورين البلاد برأى جدته كنيزة بنت عبد المجيد الأوربى فأعطى لعمران جبل الريف وبادس وأحوازهما ، وأعطى لعمر رجس وأحوازه، وأعطى لأبى القاسم سبتة وطنجة وأحوازهما ، ولأحمد الهبط وأحوازها، وأعطى لعيسى سلا وأحوازه،وأعطى لعبد الله قشتالة وتادلة وأحوازهما ، وأعطى ليحيى أغمات وأحوازها ، وأعطى لداود تلمسان وأحوازها ، وأعطى لأحمد الملقب بكثير مالقة وغرناطة وطرفاً من جبل الفتح ، وأعطى لعلىّ سجلماسة وأحوازها .

فهؤلاء ساداتنا الأشراف الاثنا عشر ، فأوى كل واحد منهم إلى بلدة وأنسل بها وترك ذريته هناك فأنسلت ذرية عمران بجبل الريف وبادس وعد منهم العلامة ابن خلدون التلمسانى نحو العشرة وهم ما بين زين العابدين والزريان القصبى الآتى ذكره وبين الإمام عمران بن إدريس وهم يوسف بن حسين بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود ابن محمد بن عبد الله بن حمزة بن على بن عمران وسيأتى لذلك مزيد فى فضلهم فراجعه .

وفى المرآة ما نصه : ولما قسم الإمام محمد بن إدريس أعمال المغرب على إخوته ولى تيساس وأقطارها أخاه عمر . وتيساس هذه فى شرق تطاون على مسيرة يوم منها فى موضع كثير الحجارة والصخر فى سفح جبل فى غربها تحتها فى شمال جرف كثير الصخر عظيمه على مكسر موج البحر لها بحر بقاع يجلب لها منه جدول ولها بسيط تركبه

الجداول من كل جهة فتسقى الزرع والكتان والثمار وأهلها في أمن من القحط ، وهى قديمة العمران ولم تزل قائمة إلى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور قارح بن مهدى واليها من قبل بنى مرين فخلت من سكانها وانتقلوا إلى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلا إلى الآن . قال والقبيلة الحافة بها من جهاتها الثلاث هى قبيلة بنى زيات بزاى ثم ياء مثناة تحتانية خفيفة ثم ألف مد ثم تاء مثناة فوقية من قبائل بنى زيال بياء تحتانية فألف مد فلام من بطون غمارة ، ويقال يال ونال بالنون مكان الياء أخوان فتفرع بال إلى بنى زيات وبنى منصور وبنى بوزوا وتفرع نال بالنون إلى بنى خالد وبنى ورزين وبنى قير بالقاف المعقودة وبنى مسيح وبنى جلا وهم بجيم مفتوحة ثم لام مشددة بعدها ألف .

الفصل الثانى

## فيما يتعلق باحوال فتح المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه

والمراد منه ما وراء الإسكندرية غرباً إلى السوس الأقصى الموالى لساحل البحر المحيط من المعمور . والمقصود منه من إفريقية إلى آخر المعمور وأدناه إفريقية وهى ما وراء ديار مصر غربـاً سميت باسم إفريقش بن أبرهة ملك اليمن لأنه غزاها فافتتحها فيما قبل الإسلام وبينها وبين مصر ممالك وأعمال كثيرة ينبغى ذكرها لتعلق أخبارها بها عند المؤرخين وفى ذلك أنواع .

النوع الأول

## فى ذكر فتح انطابلس وهى برقة وأعمالها

قال ابن عبد الحكيم كان البربر بفلسطين يعنى في زمن داود عليه السلام، فخرجوا منها متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية وقربية وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من ماء السماء ولا ينالها النيل فتفرقوا هنالك ، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت لواته وسكنت ارض « أنطابلس » وهى برقة وتفرقت فى هذا المغرب وانتشروا حتى بلغوا السوس الأقصى ، ونزلت هوارة مدينة لبدة ونزلت نفوسة مدينة سبرة وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك ، وأقام الأفارق وكانوا خدماً للروم على صلح مع من غلب على

بلادهم وهو بنو فارق بن بيصر بن حام فسار عمرو بن العاص فى الخيل حتى قدم برقة فصالح اهلها على ثلاثة آلاف دينار يؤدونها اليه جزية على أن يبيعوا من شاءوا من أبنائهم فى جزيتهم . ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها ،ووجه عمرو بن العاص عقبه بن نافع حتى بلغ زويلة . قال الطبرى فافتتحها بصلح وصار ما بين برقة وزويلة سلماً للمسلمين وقال أبو العالية الحضرمى سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول : لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به .

النوع الثانى

## في ذكر فتح أطرابلس

قال إبن عبد الحكيم : ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل على أطرابلس فى سنة إثنتين وعشرين فنزل القبة التى على الشرف من شرقيها فخرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من عسكر عمرو فى سبعة نفر ، فمضوا غرب المدينة حتى امعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا فاصابهم الحر فاخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ، ولم يكن فيه ما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة فى مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجى وأصحابه وإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ووجدوا مسلكاً اليها من الموضع الذى حسر منه البحر فدخلوا حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم وأبصر عمرو أصحابه الستة فى جوف المدينة فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم وغنم عمرو ما كان فى المدينة . ومن بسبرة متحصنون وهى المدينة العظمى وسوقها السوق القديم ،

فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة سبرة وهم غافلون وقد فتحوا أبوابها لتسرح مواشيهم فدخلوها فلم ينج منهم أحد واحتوى أصحاب عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو قال : ثم أراد عمرو أن يتوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب : « إن الله عز وجل فتح علينا أطرابلس وليس بيننا وبين إفريقية إلا تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » فكتب اليه عمر : لا إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت . وكأنه أشار رضى الله عنه بقوله المفرقة وغادرة مغدور بها متفرساً إلى ما يقع من النكث بعد الإبرام والكفر بعد الإسلام المتكرر من أهلها البربر والروم، فقد ذكر إبن خلدون أنهم ارتدوا بعد الإسلام ونقضوا بعد الإبرام ما يزيد او يقرب من إثنتى عشرة مرة فلذلك تكرر فتوحها وترجم لها بذلك ، وآخر من فتحها موسى بن نصير وطارق مولاه فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأولها فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنهما .

## النوع الثالث

# فى ذكر فتوح أَفريقية

وأولها كان فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهى غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخى الإمام عثمان رضاعة رضى الله عنهما . قال فى الاكتفاء ما نصه : قال ابن عبد الحكيم : ولما عزل

عثمان عمرو بن العاص عن مصر وأمّر عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى إمرة عمرو ابن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون فكتب عبد الله بن سعد فى ذلك الوقت إلى عثمان وأخبره بقربها من حوز المسلمين واستأذنه فى غزوها ، فندب عثمان الناس إلى ذلك بعد المشورة فيه ، فلما اجتمع الناس أمر عليهم الحارث بن الحكم أن يقدموا مصر على عبد الله بن سعد فيكون إليه الأمر ، فخرج عبد الله بن سعد إليها وكان ملك يقال له « جرجير » كان هرقل قد استخلفه فخلعه وخرج عنه ، وكان سلطان ما بين طرابلس الغرب إلى طنجة ثغر إفريقية ومستقر سلطانه يومئذ بمدينة يقال لها « قرطاجنة الأفريقية » فلقى عبد الله جرجير فقاتله فقتله الله، وولى قتله عبد الله بن الزبير فيما يزعمون ، وهرب جيش جرجير وبث عبد الله السرايا وفرقها فأصابوا غنائم كثيرة . فلما رأى ذلك رؤساء إفريقية سألوه أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر ولم يول على إفريقية أحداً ولا اتخذ بهـا قيروانـاً .

وفى كتاب سيف لما وجه عبد الله بن سعد إلى إفريقية قال له إن فتح الله عليك إفريقية فلك مما أفاء الله عليك خمس الخمس ، فلما انتهى إلى إفريقية بمن معه لقيهم صاحبها فقاتلهم فقتله عبد الله بن سعد وفتح إفريقية سهلها وجبلها واجتمعوا على الإسلام وحسنت طاعتهم وقسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليه بعد أن أخرج الخمس فعزل منه لنفسه خمسه وبعث أربعة أخماسه إلى عثمان ، وضرب فسطاطاً فى موضع القيروان ووفد إلى عثمان فشكوه فيما يأخذه من الخمس فقال أنا نفلته « وإنما النفل تبصرة وتدريب للرجال » ثم كتب إلى عقبة بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين وأمرهما بالمسير

إلى الأندلس فيمن ندب معهما من الرجال وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد على صاحب إفريقية وبعد ذلك يسيران إلى الأندلس فلما كان الاستيلاء على صاحب إفريقية سارا من فورهما إلى الأندلس وأتياها من قبل البحر . وكان عثمان رحمه الله قد كتب إلى من انتدب إلى الأندلس « أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس إنكم إن لم تفتحوها كنتم شركاء من يفتحها فى الأجر والسلام » قال كعب : يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتتحونها يعرفون بنورهم إلى يوم القيامة.

قال ابن ناجى فى معالم الإيمان ما نصه : ذكر من نزل القيروان من الصحابة رضى الله عنهم أول جيش نزل القيروان من جيوش المسلمين جيش عبد الله بن أبى سرح القرشى العامرى فى خلافة سيدنا عثمان ابن عفان رضى الله عنهما سنة سبع وعشرين ، ثم جيش معاوية بن خديج السكونى ثلاث مرات ، ولى ذلك سنة أربع وثلاثين فى خلافة سيدنا عثمان أيضاً ، ثم عقبة بن عامر الجهنى ، ثم رويفع بن ثابت الأنصارى سنة سبع واربعين ، تم عقبة بن نافع النهرى ايضاً سنة خمسين ، وفيها اختط « القيروان » وفى كل من هذه الجيوش تنزل طائفة من الصحابة بأرض القيروان . قلت : روى الواقدى عن ربيعة بن عباد الديلى قال أغزانا عثمان رضى الله عنه إفريقية فخرجنا مع الناس حتى قدمنا مصر ، فخرج عبد الله بن سعد وهو أمير الناس بمصر بمن كان معه وبمن قدم عليه من المدينة فكانوا عشرين ألفاً ونحن نريد بطريق الروم بإفريقية يقال له جرجير كان قد غلب على ما هنالك من أرض المغرب ، فلما وصل عبد الله من مصر كان يقدم الطلائع والمقدمات أمامه وكثيراً ما كنت أكون فى الطلائع ، فوالله أنا بطرابلس إذا مركب قد رسا بالساحل . فشددنا عليهم فأقاموا ساعة ثم أسرناهم فكتفناهم وهم مائة حتى لحقنا ابن أبى سرح فقتلهم ، وقد تحصن منا أهل طرابلس ولم يتعرضوا لنا فأخذنا ما فى السفينة فكانت هذه أول غنيمة أصبناها ونحن فى وجهتنا ،

ثم لحق بنا الناس وأقاموا أياماً وكانت السرايا فى كل وجهة تأتى بالبقر والشاء والعلف ثم تحاذينا حتى وردنا إفريقية فأقمنا أياماً بيننا وبين جرجير ملكهم ندعوه إلى الإسلام وكلما دعوناه إلى الإسلام نفر ، ثم استطال وقال : لا أقبل هذا أبداً فقلنا له تخرج لنا خراجاً فى كل عام فقال ولو سألتمونى درهماً واحداً لم أفعل ثم إنا تهيأنا للقتال بعد الإعذار اليه فهيأنا عبد الله بن سعد فجعل ميمنة وميسرة وقلباً وسار بأصحابه ، فقال له رجل من قبط مصر كان معه : إن القوم لا يصافونك وهم يهربون فاجعل لهم كميناً وفرقهم فى أماكن ، ففعل ذلك عبد الله وغدا بنا على تعبئة والروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله أعلم به ، ومعهم من الخيل ما لا يحصى ، فتصاولنا ساعة من النهار وصارت الشمس قدر رمحين أو أكثر ، ثم حمل عبد الله بالناس وحملنا فكانت الهزيمة عليهم ، وكر الكمين عليهم من كل مكان فأكثروا فيهم القتل والأسر فطلبوا الصلح فصالحهم عبد الله بن أبى سرح على خراج . وروى عن أسامة بن زيد الليثى أن الذى صالحهم عليه عبد الله بن سعد ألف ألف دينار .

وذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن سعد غزا إفريقية فى جماعة من الصحابة فلقى جرجير وهو فى مائة ألف وصالح بن أبى سرح فى سبيطلة وهى مدينة على سبعين ميلا من القيروان ، فقتل جرجير وهو فى مائة ألف ، وصالح بن أبى سرح أهل الحصون وأهل المدائن على مائة ألف رطل من الذهب . قال أبو عثمان سعيد بن عفير فى تاريخه : ولما سمعت الروم والأزارقة بخروج عبد الله بن سعد ووصوله إلى إفريقية خرجوا إليه ومعهم جرجير فى جمع كثير من الروم ، فلما التقى بهم المسلمون بادر جرجير بالبراز فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم فقتله ابن الزبير ومنهم من قال قتلاه جميعاً ، ثم

كانت الهزيمة واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكراً ومنزلاً وأصابوا غنائم كثيرة وقسم عبد الله الفيء على الجيش فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف مثقال ، وتولى قسم الغنيمة عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، ونفل عبد الله بن أبى سرح عبد الله بن الزبير ابنة جرجير لأنه قتل جرجير أباها وبلـغ الخمس أربعمائة دينار قال : قال عبد الله بن الزبير هجم علينا جرجير فى عسكرنا فى عشرين ومائة ألف فأحاطوا بنا من كل مكان وسقط فى يد المسلمين ونحن فى عشرين ألفاً فاختلف الناس على ابن أبى سرح فدخل فسطاطاً له ، ورأيت عورة من جرجير نظرته بها خلف عسكره على برذون أشهب معه جاريتان له ، تظللان عليه بـريش الطواويس ، وبينه وبين عسكره فلاة من الأرض ليس فيها أحد ، فخرجت أطلب ابن أبى سرح فقيل لى قد خلا فى فسطاطه فأتيت حاجبه فأبى أن يأذن لى عليه ، فأتيته من كسر الفسطاط فدخلت عليه فوجدتـه مستلقيـاً عـلى ظهره فلمـا دخلت عليه فزع فاستوى جالساً فقلت له : إيه إيه كل آزق يعوز. فقال مـا أدخلك علىّ يا إبن الزبير؟ فقلت له إنى رأيت عورة العدو فاخرج فاندب الناس قال وما هى قال فاخبرته فخرج معى سريعاً فقال يا أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير ، فاخترت ثلاثين فارساً وقلت لسائرهم اثبتوا على مصافكم وحملت فى الوجه الذى رأيت فيه جرجير وقلت لاصحابى احموا ظهرى فوالله ما نشبت ان خرقت الصف إليه فخرجت صابراً لله ولايحسب هو واصحابه إلا إننى رسول اليه حتى دنوت منه فعرف الشر فى وجهى فثنى برذونه مولياً فأدركته بادراً فدفعت بالسيف إليه فأصبت إحدى الجاريتين فقطعتها ، واحتززت راسه فنصبته فى رمحى وكبرت وحمل المسلمون فى الوجه الذى كنت فيه ، ونفض العدو

من كل وجه ومنح الله المسلمين أكتافهم ، فلما اراد ابن أبى سرح أن يوجه بشيراً إلى عثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه قال : انت أولى ممن ههنا بذلك إنطلق إلى امير المؤمنين وأخبره بالخبر، فقدمت على عثمان فاخبرته بنصر الله وفتحه ووصفت له أمرنا كما كان . وروى عن عبد الله بن نافع وعبد الملك بن حبيب أن عبد الله بن الزبير وصل من افريقية إلى المدينة فى شهر . وذكر الحسن بن سعيد الخراط أنه وصل إلى المدينة من سبيطلة فى ثمانية عشر يوماً وكان يومئذ ابن بضع وعشرين سنة. فلما وصل عبد الله بن الزبير إلى المدينة وأخبر عثمان رضى الله عنه بما كان من الفتح أمره عثمان أن يقوم بذلك خطيباً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال انا وهبت لك ذلك.فقام أمير المؤمنين عثمان خطيباً فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إن ألله فتح عليكم إفريقية وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله » وكان عبد الله رضى الله عنه إلى جانب المنبر فقام فقال : « الحمد لله الذى الف بيننا بعد الفرقة وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى لا تجحد نعماؤه ولا يزال ملكه له الحمد كما حمد نفسه وكما هو اهله » إلى آخر خطبته المشهورة. قال : وأقام ابن أبى سرح بسبيطلة وهو الأمير على عسكره والحاكم بينهم. فلما رأى الروم الذين بالساحل ماحل بجرجير وأهل سبيطلة غارت انفسهم وتجمعوا وكاتب بعضهم بعضاً واتفقوا على ضرب ابن ابى سرح فخاف منهم بما معه من الغنائم ، فكتب إلى خليفته بمصر أن يندب إليه مراكب فى البحر وليجعل فيها غنائم المسلمين ، فوصل كتابه إلى مصر وأخذ خليفته فيما امره به ، واتصل بالروم قصد إبن أبى سرح إياهم واستقباله حربهم فخافوه وراسلوه وراد بينهم تشاجر فجعلوا له جعلا على أن يرتحل بجيشه ولا يتعرضوا لشىء معه، فأجابهم إلى ذلك ووجهوا اليه مائة قنطار من الذهب فقبضها منهم وانصرف عنهم راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وشهرين ، فلما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فجعل فيها اثقال

جيشه ونفذ هو ومن معه إلى مصر سالمين ، ووجه إلى عثمان رضى الله عنه بالاموال التى معه من الخمس وغيره ، فوقعت الفتنة على أثر ذلك واستشهد عثمان رضى الله عنه ، وولى بعده علىّ رضى الله عنه وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية . فلما ولى معاوية عزل عبد الله بن أبى سرح عن مصر وإفريقية وولى معاوية بن خديج الكندى وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى سنة أربعين فأراد معاوية غزو افريقية فأغزى معاوية بن خديج فخرج معاوية من مصر وهو عامل معاوية عليها سنة خمس وأربعين ومعه عبد الله بن الزبير وجماعة من الصحابة وغيرهم من التابعين وكان معه أيضاً عبد الملك بن مروان ويحيى والأكدر بن حمام اللخمى وكريب بن أبزة بن الصماخ وخالد بن ثابت الفهرى وأشراف من جند مصر ، حتى وصل إلى إفريقية وقصد « جلولا » وعليها عامل لجرجير الرومى الذى كان ملك سبيطلة فنزل بجيشه على « قروية » وهى قروان إفريقية فدخل منها إلى جبل يقال له القرن . قال فلما وصلوا إليها امتنعوا منه وتحصنوا فحاصرهم حتى فتحها فى قصة طويلة فغنم كل ما كان فيها ثم أنفذ الغنائم إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام . وقال أبو بكر المالكى ، قال أبو العرب : إن معاوية ابن خديج غزا أفريقية ثلاث غزوات أما الأولى فهى سنة أربع وثلاثين فى خلافة عثمان بن عفان وكانت تلك الغزوة لا يعرفها كثير من الناس ، وأما الثانية فهى فى سنة خمس وأربعين من الهجرة . وقال محمد ابن يوسف الوراق القيروانى : إن معاوية بن خديج غزاها سنة أربع وثلاثين وهى أول غزواته ثم غزاها عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى سنة اثنتين وأربعين ، ثم غزاها معاوية بن خديج وهى ( خراب ) كلها وغزا معاوية جزيرة صقلية فى مائتى مركب وأصاب بها غنائم كثيرة وانصرف إلى « قمونية » وقسم عليهم فيئهم وبعث بالخمس إلى معاوية ابن أبى سفيان وهو إذ ذاك خليفة وهذه الغزوة هى غزوة معاوية بن

خديج الثانية وكانت سنة خمس وأربعين وقيل سنة إحدى وخمسين اهـ كلام الوراق .

قال المالكى : لما وصلت الغنائم إلى معاوية بن أبى سفيان أعـاد معاوية بن خديج بجيوش الشام ومصر إلى إفريقية وكان ذلك سنة خمسين ومعه عبد الملك بن مروان فوصل إلى إفريقية واحتفر الآبار التى تسمى اليوم « آبار خديج بباب تونس » وإنما احتفرها إذ كان عسكره هناك ثم غزا منها وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا إلى قمونية ، وبنى بناحية القرن مساكن وسماها قيرواناً ، وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور ثم رحل معاوية بن خديج من إفريقية إلى معاوية بن أبى سفيان فرفع الغنائم إليه ، ثم عزله معاوية من مصر وولى عليها سلمة بن مخلد الأنصارى فوجه سلمة خالد بن ثابت الفهرى إلى إفريقية وكان من التابعين فخرج فى المحرم سنة أربع وخمسين فانتهى إلى مواضع منها وأصاب غنائم كثيرة ، ثم عزله سلمة وولى عليها أبا المهاجر بجيش من قبله فوصل إلى إفريقية فأخذ عقبة بن نافع الفهرى فحبسه وضيق عليه فبلغ خبره معاوية فكتب إلى أبى المهاجر يأمره بتخليته ويعنفه فيما صنع فأطلقه أبو المهاجر وأرسله برسل من قبله حتى أخرجه من قابس ، فمضى وهو حنق على أبى المهاجر فدعا الله عز وجل أن يمكنه منه ، فلم يزل أبو المهاجر خائفاً من دعائه وقال هو عبد لا ترد له دعوة . ثم إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربى وأحسن إليه واتخذه صديقاً وصالح عجم إفريقية ، وخرج بجيوش من العرب ففتح كل ما مر به حتى انتهى إلى العيون التى تسمى اليوم « عيون أبى المهاجر » نحو تلمسان ولم يستخلف على القيروان أحداً ينظر فيها لأن أكثرهم خرج معه ولم يبق إلا شيوخ ونساء وأطفال ، ثم رجع إليها فأقام بها اهـ كلام المالكى .

وقال محمد بن يوسف الوراق : إن عقبة بن نافع الفهرى غزا أفريقية غزوته الثانية فى سنة ست وأربعين من الهجرة فافتتح كثيراً من حصونها وأثخن فى قتل الروم والبربر واختط مدينة القيروان وأقام بها أياماً ثم قدم أبو المهاجر مولى سلمة بن مخلد الأنصارى إلى إفريقية سنة خمس وخمسين فعزل عقبة وقيده وحبسه وأخرب ما كان اختطه وبناه بالقيروان واختط مدينة « تاكروب » بجوف أفريقية سنة خمس وخمسين على نحو ميلين وجد فى بنائها وتشييدها ولم يزل عقبة فى حبسه حتى أتاه كتاب الخليفة معاوية بن أبى سفيان يأمره بإطلاقه .

قال المالكى : ولما سرح عقبة من وثاقه ، توجه إلى معاوية بن أبى سفيان فوجده قد توفى وولى بعده يزيد فدخل عليه وأخبره بما صنع أبو المهاجر بالقيروان ، وما حل به منه ، وقال : فتحت إفريقية وبنيت المسجد الجامع فبعث عبيداً الأنصارى فأهاننى وأساء عزلتى ، فغضب يزيد وقال : أدركوه قبل أن يخربها . ورد عقبة إليها وأزال ولاية سلمة عنها وأقره بمصر وذلك فى سنة اثنتين وستين من الهجرة، فقدم عقبة عليها فى عشرة آلاف فارس فوصل إلى القيروان فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ منه ما وجد بيده من الأموال فبلغ ذلك مائة ألف دينار ذهباً وجدد بناء القيروان وشيدها ونقل إليها الناس فعمرت وعظم شأنها وعلا قدرها وأعز الله بها الإسلام وأقر بها أعين الأنام . ثم إن عقبة خرج بأصحابه وبكثير من أهل القيروان إلى المغرب واستخلف عليها عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى وخرج بأبى المهاجر معه موثوقاً . ولما خرج عقبة دعا بأولاده فقال لهم : إنى بعت نفسى من الله ولا أدرى ما يقضى على فى سفرى ثم قال: « يا بنى إنى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملأوا صدوركم شعراً وتتركوا القرآن ، املأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على

الله ، وخذوا من كلام العرب ما تهذبون به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذل بالنهار وهمّ بالليل فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبقى لكم الحرمة مع الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين يحملونكم دين الله ويفرقون بينكم وبين الله ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والحيطة فإنه أسلم لكم ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا . ثم قال : عليكم سلام الله وأرى ألا تروني بعد يومي هذا . ثم قال : : اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي من دار كرمتي عندك ؛ ثم سار لا يدافعه أحد حتى انتهى إلى « غاية » والروم يهربون من طريقه يميناً وشمالا ، فحاصرها وقد اجتمع فيها الروم فقاتلهم وحاصرهم حصاراً شديداً ، ثم انهزم عددهم فقتلهم قتلا ذريعاً وغنم أموالهم ، ثم كره أن يقيم عليهم فرحل عنهم ونزل على « تلمسان » وهي من أعظم مدائنهم وانضم إليها من حولها فخرجوا إليه في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ، فقاتلهم حتى ظن المسلمون أنه الفناء ، فضرب الله في وجوه الروم فقاتلهم إلى باب الحصن وأصاب الناس منها غنائم كثيرة ثم ترك القيام عليها . فرحل يريد الزاب فسأل عن أعظم مدائنه فقيل له : مدينة يقال لها « آدانة » وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، فلما بلغهم قدوم المسلمين عليهم هربوا إلى حصنهم وإلى الجبال ، فلما قدم عقبة نزل على واد منها على ثلاثة أميال أو أكثر قليلا ، فبلغوه عند الوادي في وقت المساء وكان وقت نزوله يكره قتالهم بالليل ، فتواقف القوم الليل كله لا راحة لهم ولا فترة ولا نوم ، فسماه الناس إلى اليوم وادي السهر لأنهم سهروا فيه فلما أصبح عقبة صلى الصبح ثم أمر المسلمين بقتالهم فقاتلوهم فقال ما رأى المسلمون قتالا مثله قط حتى يئس المسلمون من أنفسهم ثم أعطاهم

الله تعالى الظفر فانهزم الروم وقتل فرسانهم وأهل النكاية والبأس منهم واستولت الهزيمة على بقيتهم وفي هذه الغزوة ذهب الروم من «الزاب» وذلوا فكره عقبة المقام عليهم وقد تحصنوا ، فرحل منها يريد المغرب حتى نزل «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم ، فقام فى الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : «أيها الناس ان أشرافكم وخياركم الذين رضى الله عنهم وأنزل عليهم كتابه بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة فهم أشرافكم والسابقون منكم للبيعة باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته ، بيعة رابحة ، وأنتم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين فقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم فاصبروا والقوهم بقلوب صادقة فإن الله تعالى جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه » ، فالتقى المسلمون معهم فاقتتلوا قتالا شديداً ، فلم يكن لهم بقتال العرب من طاقة فولوا هاربين ، فقتلهم المسلمون قتلا ذريعاً فأبادوا فرسان البربر وتفرق جمعهم وأقيالهم وقليل من نجا منها .

ثم رحل حتى نزل طنجة الغربية فنزل على بحر وهو بحر الأندلس فقيل له ذاك بحر لا يرام وعليه ملك عظيم الشأن وما أظنك تقدر أن تجوز هذا البحر فقال لهم دلونى على رجال البربر والروم ، فقيل له قد تركت خلفك الروم وقد أفنيتهم وما أمامك إلا البربر وهم في عدد لا يعلمه إلا الله وهم أنجاد البربر، فسألهم عن موضعهم ، فقالوا له : بالسوس الأدنى ، فأمر عقبة الجيش بالرحيل على بركة الله تعالى وعونه فرحل يريد السوس الأدنى فلقى البربر في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ،

فانهزموا وقتلهم قتلاً ذريعاً وأمعنت خيل المسلمين في البلاد ، ثم رحل إلى السوس الأقصى فاجتمع عليه البربر في عدد لا يحصى ، فاقتتلوا قتالا شديداً حتى كثر القتلى من الفريقين . ثم إن الله عز وجل بمنه وكرمه وفضله ضرب فى وجوههم فهزمهم المسلمون وقتلوهم وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم ، فبلغنا أن الجارية منهم بلغ ثمنها بالمشرق ألف دينار ثم هربوا بين يديه ثم رحل يريد البحر المحيط فانتهى إليه وأقحم فيه فرسه لا يقف بين يديه أحد ولا يرومه بشيء، ثم نادى بأعلى صوته وهو يشير بسوطه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال بعض أصحابه : على من تسلم ياولى الله ؟ فقال على قوم يونس من وراء هذا البحر ولولا هذا لوقفت بكم عليهم . ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم اشهد إني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك ؛ ثم انصرف راجعاً يريد إفريقية، وداخل البربر منه رعب عظيم وتفرقوا في الجبال ، فلما دنا منهم أمر أصحابه أن يتفرقوا فوجاً فوجاً إلى إفريقية فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طنجة، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام ، أذن لمن بقي معه بالانصراف إلى القيروان وقال : هو متياسر عن طنجة، فلما انتهى إليها نظره الروم في خيل يسيرة ، فقرب إليها لينظر إليها ويعرف قدرما يكفيها من الخيل فيقطع ذلك إليها وخيوله متياسرة عن طنجة ، فلما انتهى إليها نظر الروم إلى قلة من معه من الخيل ، فقالوا : في قلة هذه الخيل قتل أهل الأرض كلهم ، وظنوا أن ذلك كان هو عسكره فأغلقوا باب حصنهم دونه وأقبلوا يرمونه بالحجارة وهم مع ذلك يشتمونه وكل ذلك وهو يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى رسوله ، فلما توسط البلاد نزل وبعث الروم إلى كسيلة الأوربى فأعلموه بقلة من معه ، فخرج له جمع من الروم والبربر وتسارعوا إليه ، ثم زحف إليه ليلا حتى نزل بالقرب

منه واختلط بعسكر عقبة وأقام كذلك حتى أصبح فلما رأى ذلك عقبة استعد له وأمر أصحابه ألا يركب منهم أحد ، ويئس المسلمون من أنفسهم وقاتلوا المشركين قتالاً شديداً حتى بلغ البلاء ، وتكاثر عليهم العدو ، فاستشهد عقبة رضى الله عنه وجميع من معه رضى الله عنهم واستشهد معه أبو المهاجر وكان موثوقاً في الحديد . وقيل إن كسيلة الأوربى إنما أتى قاصداً إلى أبى المهاجر لأنه كان صديقاً له فلما التحم القتال بين الفئتين قتل أبو المهاجر معهم ولم يعلم به وقيل إن أبا المهاجر حارب كسيلة مع البربر حتى ظفر به فعرض عليه الإسلام فأسلم فأحسن إليه أبو المهاجر ، وكان فى عسكر المسلمين حتى عزل أبو المهاجر وقدم عقبة ، فلما أراد أن ينهض إلى طنجة قال أبو المهاجر ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا وهذا رئيس البلاد يريد كسيلة فابعث معه والياً ، فأبى عقبة إلا أن يخرج بنفسه فخرج فنزل ماسة بمكان من السوس الأقصى ، فبنى بها مسجداً ثم أتى بذود وغنم للعسكر فذبح الذود فأمر عقبة كسيلة أن يسلخ مع السلاخين ، فقال له كسيلة : أصلح الله حال الأمير هؤلاء فتيانى وغلمانى ، فقهره عقبة فقام كسيلة مغضباً فكان كلما دحس في الشاة مسح لحيته بما علق بيده من بلل تلك الشاة ، وجعل العرب يمرون به وهو يمسح ويقولون له : يابربرى ماهذا الذى صنعت فيقول : هذا يصلح الشعر ، فقال بعض مشايخ العرب كلا إن البربرى يتوعدكم فقال أبو المهاجر لعقبة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألف جبابرة العرب مثل الأقرع بن حابس التميمى وعقبة بن زيد الفزارى وأنت تجىء إلى رجل من خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتقسى قلبه ، توثق من الرجل وإلا خيف فتكه ، فتهاون عقبة فلما انصرف نكث البربرى ما كان عليه وأقبلت النفرة إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : عاجله قبل أن

يخرج يجمع أمره ، فزحف إلى عقبة فتنحى بين يديه وهو فى خمسين ألفاً ونحن فى خمسة آلاف لأن المعسكر افترق فغشى كسيلة عقبة بقرب «تهود» فى كثرة لا يعلمها إلا الله تعالى عز وجل،فنزل عقبة عن فرسه فركع ركعتين وقال : اطلقوا أبا المهاجر ، ثم قال له عقبة : قم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة ، فقال أبو المهاجر له : وأنا أغتنم ذلك ، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا رضى الله عنهم أجمعين ، وقيل إن عقبة أمر بتخلية أبى المهاجر فأعجله القتال وهو موثق بالحديد ، وذكر أن أبا المهاجر تمثل بقول أبى محجن حيث يقول :

كفى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا     وأترك مشدوداً علىّ وثاقيـــا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت     مصارع أبواب تضم المناديـــا

وروى عن وهب بن منبه وشهر بن حوشب أن هذه البقعة التى يقال لها تهودة كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن سكناها وقال : « سوف يقتل بها رجال من أمتى على الجهاد في سبيل الله تعالى ثوابهم وثواب اهل بدر واحد ، واشوقاه إليهم منها يحشرون يوم القيامة »، وروى أن عقبة مر بعبد الله بن عمرو بن العاص وهو بمصر فى وقت عودته إلى إفريقية فقال له عبد الله : لعلك من الجيش الذين يدخلون الجنة برحالهم ، قال فمضى بجيشه حتى قاتل البربر وهم كفار فقتلوا فقتلوا جميعاً، قال المالكى: فلما استشهد عقبة وأصحابه جمع كسيلة أهل المغرب وزحف بهم يريد القيروان،فانقلبت إفريقية ناراً وعظم البلاء على المسلمين ، ومضى كسيلة بالعساكر حتى جاوز القيروان ، فخرجت العرب منها هاربة ولم يكن لهم بحربه طاقة لعظم ما اجتمع عليه من الروم والبربر ، وأسلموا القيروان وبقى بها أصحاب العيال ومن ثقل من التجار وأهل الذمة فحار الناس ولم يدروا كيف يصنعون فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان ووثقوا بدعوة عقبة رضى الله عنه ، فأجابهم إلى ذلك ودخل القيروان إلى الموضع الذى كان فيه عقبة ،

فنزل له وأقام بها أميراً وبقى المسلمون تحت يده ومضى الذين هربوا ، حتى قدموا على يزيد فوجدوه قد مات .

وذكر أبو العرب : أن زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة ، لما بلغه ماجرى على عقبة رعب رعباً شديداً عظيماً وأراد الانصراف إلى مصر فأتاه ابن حيان الحضرمى فقال له لا تفعل فإنها هزيمة إلى مصر فكان أول من برز وضرب خباءه مبارزاً للعدو فلما رأى زهير عزمه عزم معه وكان مع المسلمين فى عسكرهم تبيع ابن امرأة كعب الأحبار ، فقال له زهير لمن تراها قال أراها لرجل من العرب من غسان وأنت رجل من بلى فقال أنا والله من العرب وأنا والله من غسان جنى جدى جناية فى زمنه فلجأ إلى بلى فغلب عليه نسبهم فقال عند ذلك لتبيع علامة الفتح لنا . فقال : يطيش من أصحابك شخص فيستشهد . فلما تنادت الخيل طاش رجل من موالى اليمن فقتل وكان اللقاء بنصر أبى عبيدة ، ويقال : إن تبيعاً قال لزهير : علامة صاحب الفتح أن يفتض ذلك اليوم بكراً قال فأدنى إليه زهير رأسه وقال : إنه لم يجف بعد وأنا تطهرت من افتضاض بكر الساعة . فقال له تبيع : اخرج على بركة الله وعونه فثبت زهير بالقيروان حتى زحف عليه كسيلة البربرى وخرج الروم من حصونهم ونقضوا العهد ووافق جمعهم عيد الأضحى فاستعد زهير هو ومن معه وكانوا ستة آلاف من البربر وأربعة آلاف من العرب فلما رأى زهير ما حل به من البربر والروم بعث إليهم وقال: إنا وإياكم أهل كتاب وقد حضرنا عيد نعظمه فأخروا حربنا حتى نقضى العيد . فأجابوه إلى ذلك ، فلما انقضى العيد زحف كسيلة ، وقاتله قتالاً شديداً فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه ما لا يحصى وقضى على تلك الجموع وهرب الروم وتفرقت جموعهم ، فأقام زهير يسيراً بالقيروان ، ثم خرج إلى مصر فوصل إلى « نوبية ومراقية » وذلك فى

سنة خمس وستين فوجد يزيد قد مات وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة ومروان بن الحكم اميراً بالشام فاجتمع المسلمون إلى مروان بن الحكم فسألوه أن يبعث الجيوش إلى إفريقية لخلاص من فيها من المسلمين من يد كسيلة، وأن يقرها للإسلام كما كانت في أيام عقبة. فقال لهم : ومن يوجد مثل عقبة . فاتفق رأيه ورأى المسلمين على زهير بن قيس البلوى رضى الله عنه وكان من رؤساء العابدين وأشراف المهاجرين ، فوجه إليه عبد الملك بن مروان يأمره بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية حتى يعود إليها الإسلام كما كان . فلما اتصل ذلك بزهير سره ذلك وسارع إلى الجهاد ، وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه من الرجال وقلة الأموال فأرسل عبد الملك رجالاً من العرب وأشرافهم يحشرون الجهاد عليه الناس من مدائن الشام ، وأفرغ عليهم الأموال فتسارع الناس إلى واجتمع منهم خلق كثير ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير . فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها قلشانة ، وكان ذلك في سنة تسع وستين . فبلغ ذلك كسيلة وكان فى خلق عظيم من الروم والبربر فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم فى أمره وقال لهم ، إنى رأيت أن أرحل إلى ممس فأنزل عليها لأنى أخاف إذا التقينا مع القوم والتحم القتال أن يركبنا من فى القيروان من المسلمين فنهلك ، ولكن ننزل بعسكرنا على «ممس» لأن ماءها كثير وهو يحمل عسكرنا فإن هزمناهم دخلنا معهم طرابلس وإن هزمونا كان الجبل منا قريباً فتحصنا به . فأجابه الناس إلى ذلك ، فرحل إلى ممس فنزل بها فبلغ ذلك زهيراً وكان ينتظره أن يخرج إليه من القيروان، فلما نزل كسيلة ممس رحل زهير بعسكره فنزل القيروان وأقام بها ثلاثة أيام حتى استراح وأراح أصحابه خيلهم ونظروا إلى ما يعمل كسيلة

فإذا به يريد قتالهم فزحف إليه زهير يوم الأربعاء صباحاً فسار نهاره أجمع حتى أشرف على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول فنزلوا وبات الناس على مصافهم ، فلما أصبح زهير صلى الصبح غلساً ثم زحف إليه بمن معه فالتقى الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر البلاء في الفريقين جميعاً فضرب في وجه كسيلة فانهزم هو وأصحابه وقتلوا قتلاً ذريعاً وأثخن العرب فيهم القتل وقتل كسيلة بممس ولم يجاوزها وتمادت العرب في طلب أصحابه حتى سقوا خيلهم من ملويه (واد بطنجة) وأفنوا رجال الروم وفتح سقنبارية وقلاعها ، ثم رحل إلى القيروان وقد فزع منه جميع الروم والبربر .
ثم إن زهيراً رأى فى أفريقية رفاهية العيش وملكاً عظيماً فأبى المقام وقال إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا ، وكان رضى الله عنه ، من رؤساء العابدين فراوده أصحابه على المقام بإفريقية فأبى ورجع إلى المشرق ونزل ببرقة ، وكانت له بها وقائع كثيرة مع المشركين وكان لما بلغهم أن زهيراً خرج غازياً إلى إفريقية لقتال الروم والبربر وأيقنوا أنه خرج من برقة أمكنهم ما يريدون فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا وأفسدوا ونهبوا ، فوافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة فأخبروه بالذى حل بهم من الروم فأمر عسكره أن يمضى على الطريق وعدل هو إلى الساحل في خيل يسيرة من فرسان اصحابه وأنجادهم وطمع أن يدرك شيئاً من سبي المسلمين ، فلما انتهى إلى الساحل أشرف على الروم فإذا هم في خلق لم يقدر أن يرجع واستغاثه ذرارى المسلمين وصاحوا والروم يدخلونهم في المراكب وعسكر الروم في البر فنادى زهير فى أصحابه انزلوا رحمكم الله ، فنزل المسلمون وبرز الروم لقتالهم فالتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً حتى عانق بعضهم بعضاً وتكاثر عليهم

الروم فاستشهد زهير و كل من معه من المسلمين رضى الله عنهم ، ولم يفلت منهم إلا رجل واحد ، فأدخل الروم خيلهم وسلاحهم وسبيهم الذى كان معهم في المراكب .

فلما وصل الخبر إلى عبد الملك بن مروان اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك وكانت المصيبة بزهير مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه رضى الله عنهم ،فسأل عبد الملك بن مروان أشراف المسلمين أن ينظروا إلى إفريقية من يؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك ما أعلم أحداً أكفى بإفريقية من حسان بن النعمان الغسانى فبعثه عبد الملك أميراً على إفريقية سنة تسع وستين فى جيش فيه ستة آلاف وهو أول من دخل إفريقية من أهل الشام فى زمن بنى أمية ، فخرج حسان بجيوشه حتى وصل إفريقية فسأل أهل إفريقية عن أعظم ملوك إفريقية فقالوا صاحب «قرطاجنة» فرحل إليه حسان وفى قرطاجنة من الروم ما لا يعلمه إلا الله وهى على شاطىء البحر وتسمى «ترشيش» وهى من مدينة القيروان على مائة ميل فسار حسان حتى نزل على مدينة «ترشيش» ووجه خيله إلى قرطاجنة فلم يكن فيها بحر فضيق عليهم حسان وتواقف القرم فاقتتلوا قتالا شديداً فقتل رجالهم وفرسانهم ، واجتمع رأى الروم أن يهربوا فى البحر وكانت لهم سفن كثيرة فتحملوا فيها فمنهم من هرب إلى صقلية ومنهم من هرب إلى الأندلس فدخلها حسان بالسيف فسباها وغنم ما فيها وقتل الرجال وأرسل إلى ما حولها من العمران فاجتمعوا إليه مسرعين خوفاً منه فأمرهم بهدم قرطاجنة ، وقطع القناة عنها ثم اجتمع عليه الروم وعقدوا عليه عسكراً عظيماً لا يعلمه إلا الله تعالى وأمراؤهم البربر وذلك بموضع يسمى «صقفورة» فزحف إليهم حسان فقاتلهم قتالاً شديداً وأصيب من أصحابه رجال

كثيرون رضى الله عنهم ، ثم إن الله تعالى بمنه وفضله وإحسانه ضرب فى وجوه الروم والبربر فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلاً عظيماً واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فما ترك فى بلادهم موضعا إلا وطئه بخيله ولجأ بقية الروم خائفين هاربين إلى مدينة« باجة »فتحصنوا فيها وهرب البربر إلى إقليم « بونه » وأتى حسان البحر فاحتفره وجعل دار الصناعة وأخرج البحر إليها ثم انصرف إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه ثم سأل حسان عن أعظم ملك بإفريقية وعمن إذا قتل خافت إفريقية لقتله . فقيل له ليس بإفريقية أعظم قدراً ولا أبعد صيتاً ولا أشد ضرباً من امرأة يقال لها « الكاهنة » وهى فى جبل أوراس وجميع من بإفريقية يهابها اليوم لها سامعون مطيعون فإن قتلتها يئس الروم والبربر من إفريقية فإنها لهم ملجأ . فلما سمع ذلك حسان عزم على غزوها فخرج إليها بجيوشه فلما بلغ موضعاً يقال له « مجانة » نزل به وكانت قلعة مجانة لم تفتح فتحصن بها الروم فمضى وتركهم وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل أوراس فى عدة لا يعلمها إلا الله تعالى فنزلت بمدينة « باغاية » فأخرجت من بها وهدمتها وظنت أن حساناً يريدها حصناً يتحصن به . ثم أقبل حسان حين بلغه الخبر إلى واد يقال له مكناسة فقيل له : إنها قد أقبلت فى عدد لا يحصى فقال لهم : دلونى على ما يسع العسكر الذى أنا فيه فمالوا به إلى نهر فنزل عليه ورجعت إليه الكاهنة حتى أتت إلى أسفل النهر فنزلت عليه فكان يشرب هو وأصحابه من أعلى النهر وتشرب هى من أسفله فلما دنا بعضهم من بعض وتواقفت الخيل أبى حسان أن يقاتلها بالليل ، فوقف كل فريق على مصافهم ، فلما أصبحوا زحف بعضهم إلى بعض واقتتلوا قتالاً شديداً فعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير فسمى ذلك النهر نهر البلاء فأتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من

حد قابس فأسلم إفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل إنها أسرت ثمانين رجلاً منهم يزيد بن خالد العبسى وكان رجلاً مذكوراً . فلما فصل حسان من قابس كتب إلى أمير المؤمنين بخبر ما نزل بالمسلمين وبخبر الكاهنة وطفق يرفق فى سيره طمعاً فيمن نجا من اصحابه أن يلحقوا به. ثم إن أمير المؤمنين عبد الملك كتب إليه بلغنى أمرك وما لقيت ولقى المسلمون فحيثما لقيك كتابى هذا فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمرى . فلقيه الكتاب وهو نازل بالموضع الذي يقال له اليوم قصور حسان فابتنى هناك قصراً لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين وملكت الكاهنة إفريقية كلها .

وكانت الكاهنة حين أسرت أصحاب حسان أساءت معاملتهم إلا رجلاً واحداً وهو خالد بن يزيد العبسى تبنته الكاهنة ثم عمدت إلى دقيق شعير مفلق فأمرت به فلتّ بزيت والبربر تسمى ذلك « بسيسة » ثم دعت خالد بن يزيد وابنين لها فأمرتهم فأكل ثلاثتهم فقالت لهم أنتم الآن قد صرتم إخوة وذلك عند البربر من أعظم العهد فى جاهليتهم إذا فعلوه . ثم إن حساناً بعث رسولاً إلى يزيد وهو عند الكاهنة فأتاه فقال إن حساناً أرسلنى إليك وهو يقول لك ما منعك من الكتب إلينا بخبر الكاهنة ؟ فكتب خالد كتاباً إلى حسان مع رسوله فى خبزة ملة قد أنضجها ثم رفعها إلى الرسول ليخفى الكتاب وليظن ناظره أنه زاد للرجل ، فلم يغب شخص الرسول عنهم حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهى تقول : يا بنى ذهب ملككم ودنا هلاككم فيما يأكل الناس ، فكررت ذلك ثلاث مرات ومضى الرسول حتى قدم على حسان بالكتاب وفيه كل ما يحتاج إليه من خبر الكاهنة يقول فيه : إن البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم فى الرأى وإنما ابتلينا بأمر أراده الله وأكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة ، فإذا نظرت فى كتابى هذا فاطو المراحل وجد السير فإن الأمر إليك

ولست أسلمك إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم إن يزيد كتب بعد ذلك إلى حسان بخبر الكاهنة وعمد إلى قربوس فنقره ووضع فيه الكتاب وطبق عليه القربوس وأخفى مكان النقر منه ، ثم حمل رسولاً على دابة بالكتاب فلما فصل الرسول خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهى تقول : قد دنا هلاككم فى شىء من نبات الأرض وهو بين خشبتين ، وكانت من أعلم أهل زمانها بالكهانة . ومضى الرسول حتى قدم على حسان فلما بلغ الكاهنة أن حساناً مقيم بقصوره لا يبرح قالت للبربر والروم : إنما طلب حسان من إفريقية المدائن والذهب والفضة والشجر ، ونحن إنما نريد المراعى والمزارع فما نرى لكم إلا خراب إفريقية ، وكانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة ، وقرى متصلة فأخربت ذلك كله الكاهنة فخرج من النصارى ثلثمائة رجل يستغيثون بحسان فيما نزل بهم من خراب الحصون وقطع الشجر ، وكان قد وجه إليه عبد الملك بن مروان رسولاً يأمره بالنهوض إلى إفريقية قبل أن تخربها الكاهنة ، فوافق ذلك وصول الروم إليه وقدوم رسول خالد بن يزيد إليه فخرج بجميع عسكره إلى إفريقية فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت : يا بنى انظروا ماذا ترون فى السماء ، فقالوا نرى شيئاً من سحاب أحمر فقالت لهم : لا والله ما هو إلا وهج خيل العرب أقبلت إليكم . ثم قالت لخالد بن يزيد الذى كانت أسرته من المسلمين إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم ، أما أنا فمقتولة ولكن أوصيك بأخويك هذين خيراً تريد ولديها فانطلق بهما إلى العرب وخذ لهما أماناً ، فانطلق بهما خالد إلى العرب ولقى حساناً وهو مقبل يريد الكاهنة فأخبره خبرهما وأخذ لهما أماناً وكانت مع حسان جماعة من البربر فولى عليهم الأكبر من ولدى الكاهنة وأكرمه وقربه .

ثم مضى حسان ومن معه يريد الكاهنة فوصل إلى قابس فلقيته الكاهنة

فى جيوش عظيمة فقاتلهم حسان وهزمهم الله وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة « بشر » تتحصن بها فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فذهبت تريد جبل أوراس ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده فجعل بين يديها على جمل فتبعها حسان حتى قرب من موضعها ، فلما كان الليل قالت الكاهنة لابنيها : إنى مقتولة وأرى رأسى تركض به الدواب تمضى به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس وأراه موضوعاً بين يدى ملك العرب الذى بعث إلينا بهذا الرجل . فقال لها خالد بن يزيد وولداها فإذا كان الأمر هكذا فارحلى وخلى له البلاد فقالت وكيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر من الموت فأقلد قومى عاراً إلى آخر الدهر ؟ فقالوا لها : ألا تخافين على قومك الموت ؟ فقالت : إذا أنا مت فلا أبقى الله أحداً منهم فى الدنيا . فقال لها يزيد بن خالد وولداها : فما نحن صانعون ؟ فقالت : أما أنت يا خالد فتنال ملكاً عظيماً ، مع الملك الذى يقتلنى ، ثم قالت لهم : اركبوا واستأمنوا فركب خالد بن يزيد وولداها بالليل متوجهين إلى حسان فلما أصبح حسان زحف إلى الكاهنة وأقبلت الكاهنة زاحفة إليه فالتقت أعنة الخيل بيزيد وولديها فسلموا عليهم ومضوا بهم إلى حسان فدخل خالد بن يزيد على حسان وأخبره بما قالت الكاهنة وأنها وجهت ولديها فأمر بهما حسان فأدخلهما عسكره ووكل بهما أقواماً وقدم خالد بن يزيد على أعنة الخيل فالتقى القوم ووضعوا السلاح ووقع الصبر حتى ظن المسلمون أنه الفناء فانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر سماها الناس « بئر الكاهنة » فنزل حسان على البئر التى قتلت فيها ويقال إنها قتلت عند « طبرقة » فعجب الناس من خلقتها وكانت الأترجة تجرى فيما بين عجيزتها وأكتافها .

ثم إن الروم تحزبوا على قتال حسان واجتمعوا إليه وقاتلوهم فهزمهم الله تعالى فخافه البربر فأمنوه فلم يقبل أمانتهم حتى يعطوه من جميع

قبائلهم اثنى عشر ألف فارس تكون مع العرب برسم الجهاد . فأجابوه إلى ذلك وأسلموا على يديه ، فعقد لولدى الكاهنة بعد إسلامهما لكل واحد منهما ستة آلاف فارس من البربر ، وجعله والياً عليهم وأخرجهم مع العرب يفتتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر ، فمن ذلك صارت الخطط بإفريقية للبربر فكان يقسم الفىء بينهم والأراضى ، فحسنت طاعتهم له ودانت له إفريقية ودون الدواوين ، ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء المسجد الجامع ، فبناه بناء حسناً وجدده وذلك فى شهر رمضان المعظم من سنة أربع وثمانين من الهجرة ، ثم رحل يريد قرطاجنة فانتهى إلى طنجة فوجه أبا صالح مولاه إلى قلعة زغوان فنزل بموضع « فحص أبى صالح » وبه سمى فقاتل أهلها ثلاثة أيام فترك حسان عسكره « بطنفزة » ثم رحل إلى زغوان فى خيل مجردة فافتتحها صلحاً وانصرف إلى طنفزة ثم سار إلى قرطاجنة فنزل بموضع دار الصناعة ، وحسان هذا هو الذى خرق البحر إليها وجعلها « دار صناعة » فأخرج إليها الماء وأجراه من البحر إليها فخرج إلى حسان أهل قرطاجنة بأجمعهم فحاربوه حرباً شديدة فهزمهم الله عز وجل بين يديه ، وملك حسان رضى الله عنه حصن « تونس » وقرطاجنة فلما رأت الروم شدته وقهره لهم وعلموا أنهم لا قدرة لهم به ولا طاقة ، سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج ، فأجابهم حسان إلى ذلك ووافقهم عليه فأدخلوا عند ذلك ثقلهم فى مراكب كانت معدة عندهم فى البحر وهربوا ليلاً بأجمعهم من باب يقال له باب النساء ، وحسان رضى الله عنه لا علم عنده بما فعلوه من هروبهم وتركوا مدينتهم خالية لا أحد بها ، ونزلوا بجزيرة صقلية ومضى بعضهم إلى بلاد الأندلس . فدخل عند ذلك حسان إلى المدينة وبنى مسجداً وخرب بناءهم ورحل عنها راجعاً إلى مدينة القيروان حرسها الله تعالى وأقام بها وعمرها المسلمون وبنوا بها

المساكن وانتشروا فيها وكثروا وأمنوا من أعدائهم وقطع الله شوكتهم وأقر الله تعالى بها أعينهم ، وعلموا أن الله عز وجل قبل دعوة عقبة بن نافع فيما دعا لها ، وولى حسان بن النعمان الغسانى على صدقات الناس ، والساعى عليهم حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى رضى الله عنه .

ثم إن حسان بن النعمان لما تهدمت بلاد إفريقية وأمن على أهلها رحل بمن معه من المسلمين والغنائم والأموال قاصداً عبد الملك بن مروان ومعه خمسة وثلاثون ألف فارس ، وكان معهم من الذهب ثمانون ألف دينار ، وقد جعل حياطة عليها مع قِرَب الماء ، واستقامت إفريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل ملكة الكافرين ، فصارت القيروان دار إسلام وجميع من بإفريقية إلى وقتنا هذا وإلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى ، وذلك ببركة من اختطها ودخلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين .

## ذكر فتح موسى بن نصير

وهو آخرها وأثبتها الموالى لفتح الإمام إدريس الأكبر رضى الله عنه ، وإليه الإشارة بقول الإمام ابن غازى :

وفتح الغرب لسوس الأقصى موسى وطارق بما لا يحصى
وجاءنا إدريس عام قعب وبنيت فاس في عام قضب

والفاتح المذكور هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمى بالولاء صاحب فتح الأندلس كان من التابعين رضى الله عنهم ، وروى عن تميم الدارى رضى الله عنه وكان عاقلاً كيساً شجاعاً ورعاً تقيّاً لله تعالى لم يهزم له جيش قط ،وكان والده نصير على حرس معاوية بن أبى سفيان، وكانت منزلته عنده مكينة . ولما خرج معاوية لقتال على بن أبى طالب رضى الله عنه لم يخرج معه ، فقال له معاوية : ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها . فقال : لا يمكننى أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى، فقال : ومن هو ؟ فقال : الله عزو جل . فقال : وكيف لا أم لك ؟ فقال وكيف ، لا أعلمك هذا فاغضض وامض ، قال : فأطرق معاوية مليّاً ثم قال أستغفر الله ورضى عنه ، وكان عبدالله ابن مروان أخو عبد الملك بن مروان والياً على مصر وإفريقية ، فبعث إليه ابن أخيه الوليد بن عبد الملك أيام خلافته يقول له أرسل موسى بن نصير إلى إفريقية ، وذلك سنة تسع وثمانين من الهجرة .

وقال أبو عبد الله الحافظ عبد الحميد فى كتاب جذوة المقتبس : موسى بن نصير تولى إفريقية سنة سبع وتسعين ، فأرسله إليها فلما قدمها ومعه جماعة من الجند بلغه أن بخارج البلاد جماعة خارجين فوجه إليهم ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ، ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى فأتاه بمائة ألف رأس . قال الليث بن سعد : فبلغ الخمس ستين ألف رأس . وقال أبو شعيب الصدفى : لم يسمع فى الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ، ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف الأيدى ، وكانت البلاد فى قحط شديد فأمر الناس بالصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرق بينها وبين أولادها ، ووقع البكاء والضجيج ، فأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب بالناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك . فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فقال هذا مقام لا يدعى فيه إلا لله عز وجل فسقوا حتى رووا .

ثم خرج موسى غازياً وتبع البربر وقتلهم قتلاً ذريعاً وسبا سبياً عظيماً وسار حتى انتهى إلى السوس الأدنى لا يدافعه أحد ، فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا إليه وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم والياً ، واستعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربرى . ويقال إنه من الصدف ترك عنده تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدد الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى خلقاً يسيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ورجع إلى إفريقية ولم يبق فى البلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم . فلما استقرت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الاندلس فى جيش من البربر ليس فيه من العرب الا نزر يسير ، فامتثل طارق أمره وركب البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس ، وصعد إلى جبل يعرف اليوم بجبل طارق نسب إليه لما حصل عليه وكان صعوده

إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة في اثني عشر ألف فارس من البربر خلا اثنى عشر رجلا . وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب وقت التعدية وأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم يمشون على الماء حتى مروا به فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، ذكر ذلك ابن بشكوال المقدم ذكره في حرف الحاء في تاريخ الأندلس وكان صاحب طليطلة ومعظم بلاد الأندلس ملك يقال له « لذريق » .

ولما احتل طارق الجبل المذكور كتب إلى موسى بن نصير : إنّى فعلت ما أمرتنى به وسهل الله سبحانه في الدخول . فلما وصل الكتاب إلى موسى ندم على تأخره وعلم أنه إن فتح نسب الفتح إليه دونه ، فأخذ في جمع العساكر وولى على القيروان ولده عبد الله وتبعه فلم يدركه إلا بعد الفتح ، وكان لذريق المذكور قد قصد عدوّاً له واستخلف فى المملكة شخصاً يقال له « تدمير » وإلى هذا الشخص تنسب بلاد تدمير بالاندلس ؛ فلما نزل طارق بالجبل الذي فتحه كتب تدمير إلى لذريق الملك أنه وقع بأرضنا قوم لا ندرى من السماء هم أم من الأرض . فلما بلغ ذلك لذريق رجع عن مقصوده فى سبعين ألف فارس ومعه العجول تحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، فلما بلغ طارقاً دنوه قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ثم قال : « أيها الناس أين المفر ؟ والبحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات

إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا أحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبدأ فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إذا صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان والرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، والمقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، ولتكون مغنماً خالصاً لكم من دون المسلمين سواكم والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون» (١) .

فلما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لذريق

---

(١) في الاصل تحريف كثير في هذه الخطبة . وقد اصلحناها بالمقابلة على ما في نفح الطيب (طبعة مصر سنة ١٣٠٢) المجلد الاول ، الصفحة ١١٢ .

وأصحابه وما وعدهم من النيل الجزيل انبسطت قواهم وتحققت آمالهم وهبت ريح النصر عليهم وقالوا لقد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فامض إليه فإننا معك وبين يديك ، فركب طارق وركبوا وقصدوا مناخ لذريق وكان قد برز بمتسع من الأرض ، فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه فباتوا ليلتهم فى حرس إلى الصبح فلما أصبح الفريقان ركبوا وعبأوا كتائبهم وحمل لذريق على سريره ، وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله وهو مقبل فى غاية من البنود والأعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق وأصحابه عليهم الزرد ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسى العربية وقد تقلدوا السيوف واعتنقوا الرماح ، فلما نظر إليهم لذريق قال أما والله إن هذه الصور التى رأيناها فى بيت الحكمة ببلدنا فداخله منهم رعب – ونحن نتكلم عن بيت الحكمة آخراً – فلما رأى طارق لذريق قال لأصحابه هذا طاغية القوم . وحمل وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة بين يدى لذريق فخلص إليه طارق وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره ، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم التحم الجيشان وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة اليونان على موضع بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلا فلما سمع بذلك موسى ابن نصير المذكور أولاً عبر الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له يا طارق إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس فاستبحها هنيئاً مريئاً ، فقال له طارق : أيها الأمير والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط وأخض فيه بفرسى ، فلم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ « جليقية » وهى على ساحل البحر المحيط .

وقال الحميدى فى جذوة المقتبس : إن موسى نقم على طارق إذ غزا بغير إذنه وسجنه وهمّ بقتله ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه فأطلقه

وخرج معه إلى الشام ، وكان خروج موسى من الأندلس وافداً على الوليد يخبره بما فتح الله سبحانه وتعالى على يديه وما معه من الأموال فى سنة أربع وتسعين للهجرة ، وكانت معه مائدة سليمان بن داود التى وجدت فى « طليطلة » على ما حكاه بعض المؤرخين ، فقال : كانت مصنوعة من الذهب والفضة وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكانت عظيمة بحيث أنها حملت على بعير قوى فما سار إلا قليلاً حتى تفسخت قوائمه ، وكان معه تيجان الملوك الذين تقدموا من اليونان وكلها مكللة بالجواهر ، واستصحب ثلاثين ألف فارس . ويقال إن الوليد نقم عليه أمراً فلما وصل إليه بدمشق أقامه فى الشمس يوماً كاملاً فى يوم صائف حتى خرج مغشياً عليه . وقد أطلنا هذه الترجمة كثيراً لكن الكلام انتشر فلم يمكن قطعه . مع أنى تركت الأكثر وأتيت بالمقصود ، ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان أخوه (وحج فى سنة سبع وتسعين للهجرة) وقيل سنة تسع وتسعين فحج معه موسى بن نصير ومات فى الطريق « بوادى القرى » وقيل بمر الظهران على اختلاف فيه . وكانت ولادته فى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

قال ابن خلكان وأصل « بيت الحكمة » أن اليونان وهم الطائفة المشهورة بالحكمة كانوا يسكنون ببلاد الشرق قبل عهد الإسكندر ، فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس لكونها طرفاً فى آخر العمارة ولم يكن لها ذكر يوم زال ملكهم ولا ملكها أحد من الملوك ، ولا كانت عامرة وكان أول من عمر فيها واختطها « أندلس ابن يافث بن نوح عليه السلام » فسميت باسمه ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت صورة المعمور عندهم على شكل طائر رأسه المشرق ،

والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغرب ذنبه ، فكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس أجزاء الطائر . وكانت اليونان لا ترى اشتغال الأمم بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التى كان أمرها عندهم أهم الأمور ، فلذلك انحازوا من بين يدى الفرس إلى الأندلس ، فلما ساروا إليها أقبلوا على عمارتها بشق الأنهار وبنوا المعاقل وغرسوا الجنات والكروم وشيدوا الأمصار وملأوها حرثاً ونسلاً وبنياناً ، فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأوا بهجتها : إن الطائر الذى صورت العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاووساً معظم جماله فى ذنبه ، فاغتبطوا بها أتم اغتباط واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة « طليطلة » لأنها وسط البلاد .

وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم فنظروا فإذا ليس ثم من يحسدهم على رغد العيش إلا أرباب الشظف والشقا ، وهم طائفتان : العرب والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم المعمورة فعزموا أن يتخذوا لدفع هذين الجنسين من الناس طلسماً فرصدوا أرصاداً . ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم إلا « تعدية البحر » ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ازدادوا نفوراً وكثر تحذرهم من مخالطتهم فى نسل أو فى مجاورة حتى لا يثبت ذلك فى طبائعهم ويصير بعضها مركباً فى غرائزهم فلما علم البربر عداوة الأندلس لهم أبغضوهم وحسدوهم فلا تجد أندلسيّاً إلا مبغضاً بربريّاً ولا بربرياً إلا مبغضاً أندلسيّاً إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس من أهل الأندلس إلى البربر لكثرة وجود الأشياء بالأندلس وعدمها ببلاد البربر .

وكان بنواحى عرب جزيرة الأندلس ملك يونانى بجزيرة يقال لها « قادوس » وكانت له ابنة فى غاية الجمال فتسامع بها ملوك الأندلس

وكانت جزيرة الأندلس كثيرة الملوك لكل بلدة أو بلدتين ملك ، فخطبها كل منهم ولكن خاف أبوها من تزويجها لواحد من إسخاط الباقين ، فتحير فى أمره وأحضر ابنته المذكورة وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكرهم وأنثاهم وكذلك قيل : « إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : على أدمغة اليونان وأيدى أهل الصين وألسنة العرب » فلما حضرت بين يديه قال يا بنية إنى قد أصبحت فى حيرة من أمرى . قالت ما حيرك ؟ قال خطبك جميع ملوك الأندلس ومتى أرضيت واحداً أسخطت الباقين ، فقالت : اجعل الأمر إلى تخلص من اللوم ، فقال : وما تصنعين قالت أقترح لنفسى أمراً فمن فعله كنت زوجته ومن عجز عنه فليس يحسن به السخط ، قال : وما الذى تقترحين قالت أقترح أن يكون ملكاً حكيماً قال : « نعم الذى اخترته لنفسك » وكتب فى أجوبة الملوك الخطاب الآتى : « إنى قد جعلت الأمر إليها فاختارت من الأزواج الملك الحكيم » فلما وقفوا على الأجوبة سكت عنها كل من لم يكن حكيماً . وكان فى الملوك رجلان حكيمان فكتب كل منهما إليه إنى أنا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيهما قال يا بنية بقى الأمر على إشكاله وهذان ملكان حكيمان أيهما أرضيته أسخطت الآخر ، قالت سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتى به فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمسته تزوجت به ، قال : وما الذى تقترحين عليهما ؟ قالت : إنا ساكنون هذه الجزيرة وإننا محتاجون إلى رحى تدور بها ، وإنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى اليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ له طلسماً يحصن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها اقتراحها وكتب إلى الملكين بما قالته ابنته فأجابا إلى ذلك وقاسماه على ما اختارا وشرع كل واحد فى عمل ما اختاره من ذلك .

فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى خرز عظام اتخذها من الحجارة ونضد بعضها إلى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير فى الموضع المعروف « بزقاق سبتة » وسدد الفروج التى بين الحجارة مما اقتضته حكمته وأكمل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة وآثاره باقية إلى اليوم « فى الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء » وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا اثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها يعبر الناس عليها من سبتة إلى الجزيرة والله أعلم أى القولين أصح. فلما صح تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب عليها الماء العذب من موضع عال فى الجبل بالبر الكبير وسلطه على ساقية محكمة البناء وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية.

أما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعلمه، غير أنه عمل أمراً وأحكمه وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر فى رمل حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى له لحية وفى رأسه ذؤابة من شعر قائم فى رأسه جعودة متأبط صورة كساء جمع طرفيه على يده اليسرى بأطيب تصوير وأحكمه وفى رجليه نعل وهو قائم من رأس البناء بمقدار رجليه فقط وهو شاهق فى الهواء طوله ينيف عن ستين ذراعاً وهو مجرد الأعلى إلى أن ينتهى إلى ما سعته قدر ذراع وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضاً عليه كأنه يقول لا عبور. وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه أنه لم ير قط ساكناً ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربرى حتى سقط المفتاح من يده. وكان الملكان العاملان للرحى والطلسم يتسابقان إلى التمام من عملهما إذ كان بالسبق يستحق التزويج وكان صاحب الرحى قد فرغ

لكنه يخفى أمره عن صاحب الطلسم حتى لا يعلم به فيبطل الطلسم وكان يود عمل الطلسم حتى يحظى بالمرأة والرحى والطلسم ، فلما علم باليوم الذى يفرغ فيه صاحب الطلسم فى آخره أجرى الماء بالجزيرة من أوله وأدار الرحى وأشهر ذلك ، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلاه يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهباً فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم . وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر للسبب الذى قدمنا ذكره فاتفقوا وعملوا طلسمات فى أوراق اختاروا أرصادها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه فى بيت « بمدينة طليطلة » وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه وتقدموا إلى كل ملك منهم بعد سابقه أن يلقى على ذلك الباب قفلاً تأكداً لحفظ ذلك البيت فاستمر أمرهم على ذلك .

ولما حان وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس ، وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة وكان الملك « لذريق » المذكور السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما جلس فى ملكه قال لوزرائه وأهل الرأى من دولته : قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلاً وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه فإنه لم يعمل عبثاً . قالوا : أيها الملك صدقت إنه لم يعمل عبثاً ولا أقفل سدى بل المصلحة أن تلقى أنت عليه قفلاً أسوة بمن تقدمك من الملوك ، وكانوا آباءك وأجدادك فلم يهملوه فلا تهمله وسر سيرهم ، فقال إن نفسى تنازعنى إلى فتحه ولا بد لى منه . فقالوا : إن كنت تظن فيه مالاً فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ولا تحدث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته ، فأصر على ذلك وكان رجلاً مهاباً فلم يقدروا على مراجعته ، وأمر بفتح

الأقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً ، فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيئاً سوى مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب : « هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام » ، ورأى فى ذلك البيت تابوتاً وعليه قفل ومفتاحه معلق ففتحه فلم يجد فيه سوى رق وفى جانب التابوت صور فرسان مصورة بإتقان محكمة التصوير على أشكال العرب ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وبأيديهم القسى العربية وهم متقلدو السيوف المحلاة معتقلو الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرق فإذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذهب ملك اليونان من أيديهم ودرست حكمتهم . فهذا بيت الحكمة المقدم ذكره . فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل وتحقق انقراض دولتهم. فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس . انتهى .

# الدولة الأُولى

## الدولة الإِدريسية

### الزرهونية والعباسية

وقد علمت مما تقدم فى المقدمة أن أول هذه الدول الشريفة كان مقدم الإمام إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول ملوكها وقام من بعده خلفاؤه الثلاثة مولاه راشد بن مرشد الزبيدى وأخوه من الرضاعة وصهره عبد المجيد الأوربى وأخوه عمر إلى أن استحق القيام بها ولده « مولانا إدريس الأصغر » فوليها وهو ثانى الخلفاء . وتولى الخلافة من بعد ولده الإمام محمد بن إدريس وهو ثالث الخلفاء . وتولى الخلافة من بعده ولده مولانا على وهو رابع الخلفاء . قال العلامة العراقى فى سياق كلام له ما نصه : وذلك أن سيدى محمد بن مولانا إدريس بانى « فاس » وهو أكبر أولاده الاثنى عشر هو الخليفة من بعده وكان استيطانه بفاس إلى أن توفى بها ودفن مع أبيه وأخيه بشرقى جامع الشرفا « من حضرة فاس فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومائتين » واستخلف ولده علياً فى مرضه الذى توفى فيه وهو الملقب بحيدرة وأمه حمدة واسمها رقية بنت إسماعيل بن منصور بن مصعب . وسنه يوم بويع تسعة أعوام وأربعة أشهر . فسار فى الناس بسيرة آبائه الكرام فى

تلك الأيام إلى أن توفى بها فى شهر رجب من سنة أربع وثلاثين ومائتين ودفن مع أبيه محمد وجده إدريس وعمه عمر فى الموضع المذكور . واستخلف أخاه يحيى وأعقبهم أولاد عمه بفاس وأولاد القاسم وما زالوا يتداولون الخلافة إلى أن جاء من أخرجهم منها أوائل المائة الرابعة زمن « ابن أبى العافية » وقال فى المغرب ما نصه : ولما دخل مولانا إدريس الأكبر المغرب الأقصى وجد أهله على ثلاث فرق : « يهود ونصارى ومجوس » ودعاهم إلى دين الله وعبادته وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فأجابوه لذلك واتبعوه خفافاً وثقالاً إلى أن بويع له بالسمع والطاعة واتباع الكتاب والسنة وذلك يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعين ومائة فكثرت أتباعه وظهر دين الله وغزا من القبائل من لم يجبه إلى الاسلام فعظم أمره وبلغ خبره هارون الرشيد ، فبعث إليه من بغداد سليمان بن جرير ليخدمه وينسب إليه لكونه من وطنه وأهل بلده ، فحن إليه إدريس وأقبل عليه وقربه لأجل ذلك وصار ابن جرير المذكور يعرف الأوطان وصار يعرف الناس أنه فى العراق سيد وفاضل وماجد ، وأنه كان عند أهل العراق فى شأن عظيم ودرجة رفيعة ومقام كريم . فاستحسن منه السيد إدريس فعله وأدبه فأدناه وقربه فكان يخلو معه إلى أن وجد فيه الفرصة فسمّه فى تفاحة كان استعد له بها من عند هارون الرشيد مدبرة . فمات السيد إدريس حين شمها وخرج هارباً ، فتبعه راشد فلحق به فضربه ومنع منه ونجا إلى أن وصل بغداد ، وقد رآه رجل من فاس فى حمام بغداد وهو مقطوع اليد وفى رأسه شجة ، قال : والسيد إدريس توفى فى أوائل شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين ومائة فكانت إمارته خمس سنين وستة أشهر بعد سبعين ومائة وترك زوجته حاملاً ، فاجتمعت القبائل وأعيان القوم على عبده راشد وأمروه أن يتصرف على حاله كيف كان فى حياة سيده إلى أن تضع الزوجة

حملها ، فأجابهم لذلك إلى أن وضعت الزوجة حملها فزاد عندها ولد فتسمى على اسم والده مولانا إدريس ، وبقى راشد يدبر أمره مع أشياخ القبائل إلى أن وصل من السنين إحدى عشرة سنة وحفظ كتاب الله العزيز فأمر راشد بإحضار أهل المغرب وأعيان القبائل فحضر الناس بكثرة فاتفقوا على بيعة مولانا إدريس بن إدريس .

وكان ذلك فى عام ثمانية وثمانين ومائة ، وفى تلك السنة أسس السيد إدريس « مدينة فاس » وانجلبت إليها الناس من كل مكان فأول من عمر فيها من أحوازها أهل زرهون ومغيلة وأهل سائس وأهل المطاوسدنية ولواتت وسفرو وابن يارغة وهوارة وغيرهم من القبائل والجبال ، فأتت الناس إليها من كل ناحية ومكان وكانت أيامه نفعنا الله به أيام هدنة ورخاء وخصب وفرح وسرور ، وكان مسدداً فى أموره وأحواله وكان حازماً لا يغفل عن مصالح الدين والدنيا ، وكان يأمر الناس بهما ويحضهم على العمارة وانجلبت إليه الناس من المشرق والمغرب وانزرعت فى قلوب الناس محبته من نسبه وسيرته إلى أن توفى رحمه الله ودفن « فى زرهون » بإزاء أبيه فى «وليلى» اسم البقعة التى دفن فيها ، وذلك فى سنة ثلاث عشرة ومائتين فكانت أيامه ( وعدة سنيه ستاً وثلاثين سنة ) «وكان سبب موته عنبة شرقت له فى حلقه فمات من حينه فكفن وحملوه إلى زرهون فدفن بوليلى بإزاء أبيه » وأما القبر الذى هنا فى فاس فى مسجد الشرفا فهو قبر السيد محمد بن إدريس الأصغر رحمه الله .

وخلف رحمه الله اثنى عشر من الأولاد وتولى بعده ولده محمد وقسم لإخوته البلاد ، وكانوا تحت طوعه وكان هو أكبرهم ومن بعد ما فرقهم اختل أمرهم وقاموا على بعضهم بعضاً وكثر الهرج وقتل بعضهم بعضاً وتفصيل ذلك فى كتاب القرطاس . ثم توفى الإمام محمد فى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومائتين فكانت أيامه بعد أبيه ثمانية أعوام ثم تولى

بعده ولده علي وسنه تسع سنين فكانت أيامه قليلة وتوفى عام أربعة وثلاثين فكانت أيامه ثلاث عشرة سنة ، وولى أخوه يحيى وهو الذى أمر ببناء القرويين وأمر ببناء الحمامات ، ثم ولى الملك عليّ بعد وفاة يحيى ثم قام عليه عبد الرزاق الخارجي الأندلسى من ناحية غياثه ، وتبعه أناس من البربر كثيرة وأخذ مواطن وقرى ، فخرج إليه عليّ الإدريسى فقاتله فانهزم عليّ ودخل عبد الرزاق إلى فاس فملك عدوتها وكان أكثر سكانها أهل الأندلس الذين خرجوا من أرضهم ونفاهم بنو أمية ، وكانوا فى العدوة منهم ثمانية آلاف رجل فاستنصر بهم عبد الرزاق فرجع إليه يحيى الأندلسى بعد ما انهزم على وقاتل معه وحدثت بعد قتله حروب كثيرة اختصرنا على ذكرها ، وتولى ملك فاس يحيى وقتل من الأندلس أقواماً كانوا فى عصبة عبد الرزاق الخارجى ، وكان السيد يحيى المذكور ملك فاساً وأحوازها وكان حاذقاً شجاعاً كريماً غالباً عادلاً ، وكان أفضل الأدارسة إلى أن قام عليه أبو مصلة المكناسى ، وهو قائد عبد الله الشيعى القائم بأمر إفريقية ، وذلك فى سنة خمس وثلاثمائة فخرج يحيى لقتاله فالتقى الجمعان فهزم يحيى ودخل لفاس مهزوماً وانحصر فيها وطال حصاره إلى أن صالحه يحيى وبايع لعبد الله الشيعي صاحب إفريقية ، فارتحل عن فاس أبو مصلة قائد الشيعى ورجع إلى القيروان فلما عزم على الرجوع أرسل إلى موسى بن أبى العافية ، وكان ذا مال وجاه وماشية وكان نازلاً على حوزة تازة وصنع مع قائد الشيعي ابن مصلة خيراً كثيراً ، وقاتل معه يحيى فلما ارتحل أبو مصلة عن فاس أرسل إلى موسى بن أبى العافية وقدمه على أمور المغرب كلها وعمالة الغرب كلها تحت يديه . وأما السيد يحيى فلما بايع الشيعي صاحب إفريقية اشترط عليه قعوده في فاس فقط ولا أمر له ولا نهى على غيرها فى عمالة أهل المغرب لأجل خدمته وقتاله مع صاحب إفريقية فصار

يتصرف فى المغرب ويجمع خراجه ، وصار السيد يحيى يحضر أحواله ويضرب على يده فكتب به إلى أبى مصلة وأعلمه بفعل يحيى فتحرك إليه مرة أخرى من إفريقية وذلك فى سنة تسع وثلاثمائة فخرج إليه يحيى ليتلقاه مع جموعه فقبض عليه أبو مصلة وأوثقه في الحديد ودخل به مقيداً لفاس وأخذ ما عنده من الذخائر والأموال ، ولما أخذ ما عنده سرحه وأرسله إلى « أزيلا » وكان فيها ابن عم له يعيش فيها فأرسله إليه واقتطعه عن جموعه واقتصرنا عن حديث طويل . ثم أراد الرجوع إلى إفريقية ليشتكى ما أصابه من أبى مصلة وما فعل به موسى ابن أبى العافية وسجنه ثم هرب إلى إفريقية ومات فيها جوعاً بعد حديث طويل .
فعند ذلك قدم أبو مصلة على موسى بن أبى العافية وصار يتصرف فى أحوال المغرب . ثم إن السيد الحسن دخل لفاس مع بعض رجاله مستخفياً وهو من الأدارسة ، وقام فيها وذلك فى سنة عشر وثلاثمائة فبايعه فيها نفر من أصحاب موسى بن أبى العافية ، فكانت بينهم حروب فمات من الفريقين نحو أربعة آلاف وانهزم ابن أبى العافية ، ورجع السيد الحسن لفاس دون عسكره فقبضه عامل إفريقية وكان مضروباً على يديه حين دخل الحسن دون عسكره لأنه فنى فى القتال مع ابن أبى العافية وقبضه العامل وأوثقه فى الحديد وأرسل إلى موسى بن أبى العافية فأصبح بفاس وأرسل إلى العامل ليمكنه من الحسن ليقتله فأبى العامل فأطلقه بالليل ليهرب من الغد ويختفى فوقع من السور وانكسر ومات بعد ثلاثة أيام .
وبعد أن مات الحسن تولى ابن أبى العافية فاساً وذلك سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة فصار يبحث عن الأدارسة ليقتلهم فهربوا منه وارتحلوا إلى كل جبل فصار يتصرف فى أوامر المغرب باديه وحاضره وبايع صاحب إفريقية . فأرسل إليه قائده حمدان ثم مات ، ثم أرسل موسى إلى صاحب قرطبة أمير المؤمنين الناصر لدين الله وبقى على أمره عاملاً

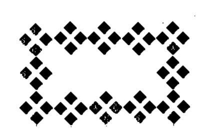
على فاس . واختصرنا كلاماً طويلاً إلى أن مات ابن أبى العافية وتولى أولاده بعده شيئاً بعد شيء على إذن الشيعى لأنهم نقضوا بعد أبيهم بيعة الناصر لدين الله صاحب قرطبة وبايع الأدارسة الذين تبقوا بعد وفاة الحسن الشيعى صاحب إفريقية واستعدوا لقتال ابن أبى العافية وكانت بينهم حروب كثيرة ووقائع يطول ذكرها إلى أن تولى فاس من تحت الشيعى صاحب إفريقية وهو من الأدارسة السيد القاسم وتولى أيضاً بعده من الأدارسة أبو العيش وبعده الحسن وهو آخرهم واقتصرنا فى حديثهم والبقاء لله الواحد القهار . انتهى .

وقد أشار إلى مضمون هذا فى الأقنوم بقوله « ذكر دولة الأدارسة » :

قد جاء راشد بإدريس الإمام ... وفى وليلى عام قعب قد أقام
وامتد ملكه إلى أن وصلا ... إلى الرشيد فلذاك أرسلا
من سمه فمات عام زعق ... وقام راشد بأمر الخلق
وكان قد ترك حملا وضعا ... ولده إدريس منه بويعا
وهو ابن إحدى عشرة من السنين ... واختط عام قضب فاسا المعين
ومات فى ريب وبعد وليا ... ولده محمد توفيا
سنة ركا ثم بعده على ... ومات فى ولد وبعده ولى
يحيى الحفيد بعده أبو الحسن ... وقام موسى عام سيح فامتهن
محمد أحسنهم من بعده ... وعام جص اختبى فى لحده
وعادت الدولة للأدارسه ... من بعد أن قد صيروها دارسه
بعد محمد تولى القاسم ... ثم أبو العيش الأخير منهم
وهو ابنه فانقرضت ذى الدوله ... فى عسه فمن بهم للملة

هذا إجماله . وأما تفصيله فينبغى أن يذكر ذلك على وجه يستدعى

بيان سبب قدومه وما لقى فى قدومه وبيعته وغزواته وفتوحاته إلى وفاته وسبب موته وقيام خلفائه من بعده وبيان سيرته الحميدة وأوصافه الجزيلة المجيدة وقيام حفيده من بعده على سنن أبيه وجده رضى الله عنهم أجمعين وعنا بهم آمين على فصول مرتبة بنقول مهذبة . اه .



## الفصل الأول

# فى سبب قدومه وما لقى فيه وبيعته وغزواته إلى وفاته

فاعلم انه قد قال أبو الحسن بن ابى زرع فى كتابه الأنيس المطرب روض القرطاس فى سبب إتيان مولانا ادريس للمغرب : إن أخاه النفس الزكية محمد بن عبد الله الكامل قام بالحجاز على ابى جعفر المنصور عام خمس واربعين ومائة منكراً فارسل اليه ابو جعفر جيشاً عظيماً فهزم النفس الزكية وقبض على جماعة من أصحابه وفروا إلى بلد النوبة إلى أن قام المهدى بعد موت المنصور فأرسل إليه فظهر النفس الزكية بمكة فبويع بالموسم وتبعه أهل مكة والمدينة وأهل الحجاز وكان له ستة إخوة وهم يحيي وسليمان وإبراهيم وعيسى وعلى وادريس فبعث علياً إلى إفريقية فأجابه بها خلق كثير من البربر وبقى هناك إلى أن توفى . وبعث يحيي إلى خراسان فأقام بها إلى أن قتل أخوه محمد ففر إلى الديلم فأسلم على يديه خلق كثير ودعا لنفسه فبايعه خلق كثير وقوى امره وذلك فى خلافة الرشيد فلم يزل يبعث اليه الرشيد بالجيوش ويحتال عليه حتى اتاه بالأمان فاقام عنده إلى أن مات مسموماً فى زمن الرشيد ، وبعث سليمان إلى مصر داعياً فلما اتصل به قتل أخيه محمد سار إلى بلاد النوبة ثم إلى السودان ثم وصل إلى تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها في أيام أخيه إدريس فكان له بها أولاد كثيرون فكل حسنى هناك من نسل سليمان ابن عبد الله وقد دخل أكثر اولاده إلى المغرب والسوس الأقصى .

وأما النفس الزكية فلما قويت شوكته بمكة قاتل المهدى فى عسكر عظيم من الحجاز واليمن وغيرهما على ستة اميال من مكة فقتل النفس الزكية بعد قتال شديد وانهزم جيشه وقتل منهم كثير فى يوم السبت فى ذى الحجة سنة تسع وستين ومائة وفر أخوه إبراهيم إلى البصرة فأقام بها ولم يزل يحارب أعداءه حتى قتل وفر أخوه مولانا إدريس مستتراً من مكة حتى وصل مصر مع مولاه راشد فلقيهما رجل من أهل الخير والدين والمحبة لأهل البيت فاستأمناه على سرهما فأعطاهما الأمان فأخبراه فأكرمهما وأقاما عنده مدة وأخبره راشد بأنه يريد المغرب بلاد البربر قائلا إنه بلدنا لعله يأمن فيه وهذا يدل على أن أصل راشد من المغرب وقد قال صاحب الاستبصار راشد أصله من البربر من قبيلة «اوريد» اه .

قيل إنه سبي مـــع أبيه فى غزوة موسى بن نصير ثم قفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير ثم أتى مع إدريس ودله على المغرب ثم اتصل خبرهما بعامل مصر على ابن سليمان الهاشمى فبعث إلى الرجل فقال إنه قد رفع إلى خبر الرجلين اللذين عندك وإن أمير المؤمنين قد كتب إلى فى طلب الحسنيين والبحث عمن وجد منهم وقد بعث عيونه على الطرقات وجعل الارصاد فى اطراف البلاد فلا يمر احد منهم حتى يعرف وتعرف صحة نسبه وحاله ومن أين قدم وإلى أين يسير . وإنى أكره أن أتعرض لدماء أهل البيت وأن ينالهما أذى بسببى فلك ولهما الأمان سر اليهما واعلمهما بمقـــالى وقـــل لهمـــا يخرجان من عملى لئلا يصل خبرهما إلى المهدى فيخرجكم من يدى وقد أجلت لكم فى الخروج ثلاثة أيام . فسار الرجل وأعلمهما فعزما على الخروج إلى المغرب فاشترى الرجل لهما راحلتين ولنفسه أخرى وصنع لهما زاداً يبلغهما إلى إفريقية وقال لراشد اخرج مع الرفقة على الجادة وأخرج أنا مع مولانا إدريس على طريق غائض أعرفه لا تسلكه الرفاق وموعدنا مدينة «برقة» أنتظرك حيث آمن عليك

مـن الطلب ، فقـال الرأى مـا رأيت . فخرج راشد ومعه الرفقـة على الجادة فى زى التجار وخرج مولانا إدريس مع الرجل فى البرية حتى وصلا مدينة برقة فقعدا فيها حتى وصل راشد ثم جدد الرجل لهما هنالك زاداً يبلغهما وودعهما وانصرف راجعاً إلى مصر . وقال التنسى : إنه أتى مصر مع مولاه راشد فأقام مستخفياً بها فانتهى خبره إلى صاحب البربر بها وهو واضح مولى صالح بن منصور الحميرى وكان متشيعاً فأتى الموضع الذى كان فيه مختفياً فلم ير أصلح له من أن يحمله إلى المغرب ففعل فبلغ ذلك هارون الرشيد فأخبر أن الذى أجازه إلى المغرب واضح المذكور ( فأمر به فضرب عنقه وصلب ) . قال في « الأنيس » وسار إدريس مع مولاه راشد إلى إفريقية يجد السير حتى وصلا إلى القيروان فأقاما بها مدة ، قال وكان راشد من أهل النجدة والشجاعة والحزم والقوة والعقل والدين والنصيحة لأهل البيت رضى الله عنهم فعمد إلى إدريس حين خرج من القيروان وألبسه مدرعة صوف خشنة وعمامة غليظة وصيره كالخادم له يأمره وينهاه كل ذلك خوفاً عليه وحياطة . فلم يزل على ذلك حتى وصلا مدينة تلمسان فاستراحا بها أياماً ثم ارتحلا منها نحو بلاد طنجة فسارا حتى عبرا « وادى ملوية » ودخلا السوس الأدنى وحده من ( وادى ملوية إلى وادى أم ربيع ) وهو أخصب بلاد المغرب وأعظمها بركة فدخلا طنجة وأقاما مدة فلم يجد مولانا إدريس بها مراده فخرج مع مولانا راشد حتى نزلا بمدينة « وليلى » قاعدة جبل زرهون وكانت وليلى متوسطة خصيبة كثيرة المياه والغراس والزيتون وكان لها سور عظيم وهى بلدة قديمة البناء ويذكر أنها من بنيان القبط وهى معروفة الآن « بقصر فرعون » ولما وصل مولانا إدريس إليها نزل على صاحبها الأمير إسحاق بن محمد بن عبد المجيد الأوربى المعتزلى فأقبل على مولانا إدريس وأكرمه وبالغ فى بره فأظهر له إدريس أمره وعرفه

نسبه فوافقه على حاله وأنزله معه بداره فتولى خدمته والقيام بشئونه وكان دخول مولانا إدريس المغرب ونزوله على عبد المجيد فى غرة ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة فأقام عنده ستة أشهر .

وأما بيعته وغزواته فإنه لما دخل شهر رمضان من السنة المذكورة جمع عبد المجيد إخوته قبائل أوربة فعرفهم بنسب إدريس وفضله وقرابته من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه وعلمه ودينه والفضائل المجتمعة فيه فقالوا الحمد لله الذى أتانا به وشرفنا بجواره ورؤيته فهو سيدنا ونحن عبيده نموت بين يديه فما تريد منا ؟ قال : تبايعونه فقالوا سمعاً وطاعة ما منا من يتوقف عن بيعته وما يريد فبايعته قبائل أوربة وكانوا فى ذلك الوقت أعظم قبائل بالمغرب وأكثرها عدداً وأشدها قوة وبأساً وأحدها شوكة فكانوا هم أنصاره الأولين ، ثم بعد ذلك قبائل زنانة وأصناف قبائل البرابرة من أهل المغرب منهم زواغة وزوارة ولماية وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة فبايعوه ودخلوا فى طاعته ولما استقام أمره أخذ جيشاً عظيماً من وجوه قبائل زنانة وأوْربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم فخرج غازياً إلى بلاد « تامسنا » كما يأتى بيان ذلك . وذكر بعض أهل العلم أن عبد المجيد تاب من اعتزاله على يده وحسنت توبته ، وفى تاريخ دخوله المغرب يقول الإمام ابن غازى رحمه الله تعالى :

وجاءنا إدريس عام قعب ... إلى وليلى بأقصى المغرب

إذ قام مدة على المهدى الخ .

وما زال رضى الله عنه يدعو إلى الله عز وجل ويقاتل على إعلاء كلمة الله إلى أن طهر الله المغرب من أنواع الكفر والضلال كما يتبين بعد . ثم إنه لما استتم أمر مولانا إدريس رضى الله عنه تجهز غازياً إلى بلاد « تامسنا » فنزل أولاً مدينة « شالة » ففتحها ثم فتح بعدها مدائن

سائر بـــلاد تامسنا ثم سار إلى بلاد « تادلا » ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية ودين اليهودية والمجوسية والإسلام بها قليل ، فأسلم جميعهم على يديه ثم رجع إلى مدينة « وليلى » فدخلها في آخر شهر ذى الحجة من سنة اثنتين وسبعين ومائة فأقام شهر المحرم مفتتح سنة ثلاث وسبعين ومائة واستراح الناس ثم خرج برسم غزو من بقى بالمغرب من البربر على دين النصرانية واليهودية والمجوسية ، وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال والحصون المنيعة ، فلم يزل يجاهدهم ويستنزلهم حتى دخلوا فى لإسلام طوعاً وكرهاً ، وفتح بلادهم ومعاقلهم وأباد من أبى الإسلام منهم بالقتل والسبى ودمر بلادهم ومعاقلهم منها حصون مندلاوة وحصون « مديونة » وبطلولة وقلاع « غياثة » وبلاد « بارز » ثم رجع من هذه الغزوات إلى مدينة وليلى فدخلها فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين المذكورة فأقام النصف من رجب حتى استراح الناس ثم خرج فى النصف الأخير من رجب المذكور برسم غزو مدينة « تلمسان » ومن بها من قبائل « مغراوة وبنى يفرن » فوصل مدينة تلمسان ونــزل بخارجها فــأتــاه أميرها محمد بن حرز المغراوى فطلب أمانه فأمنه وبايعه محمد بن حرز وجميع من معه بمدينة تلمسان فدخلها إدريس صلحاً فأمن أهلها وبنى مسجدها وأتقنه وصنع به منبراً وكتب عليه: « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر به إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وذلك فى شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة » ثم رجع إلى وليلى وتوفى بها كما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . فاستبان من هذا أنه أسلم على يديه أهل المغرب وأنه هو الذى أتاهم بالإيمان وقد علم أنه رضى الله عنه توفرت فيه شروط الخلافة علماً ونسباً .

أما الشرط الأول الذى هو العلم فقال الإمام ابن زكرى فى همزيته :

كان بحراً من العلوم فحقت ... منه فينا خلافة ودعاء

قال فى شرحها : يأتى بعد هذا البيت دليل علمه تفصيلاً . وأما الدليل الجملى فهو رضى الله عنه من تابع التابعين مع شدة قربه من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علم أن علماء الصحابة والتابعين أعلم من أكابر علماء من تأخر عنهم من العصور كما قال الشيخ السنوسى وغيره فما بالك بمن كان منهم أبناء مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك تعلم أنه قد توفرت فيه شروط الخلافة ، ولا يرد عليه أصلا خلع بنى العباس والخروج عليهم فإنه عهد إليه أخوه محمد النفس الزكية بالإمامة كما عهد إلى إخوته سليمان وإبراهيم ويحيى ( والنفس الزكية انعقدت له الإمامة قبل بنى العباس ( فقد ذكر غير واحد أنه لما تزلزلت قواعد ملك بنى أمية وضعف أمرهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وبايعوا بالخلافة « للنفس الزكية » وحضر هذا العقد أبو جعفر المنصور العباسى قال فى كتاب ترجمان العبر : فبايع المنصور فيمن بايع من أهل البيت وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم بما علموا له من الفضل عليهم ، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى ورضى عنهما يرجحان إمامته على بنى العباس لأن بيعة النفس الزكية كانت فى عنق أبى جعفر بالحجاز ويريان إمامته أصح من إمامة أبى جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل اهـ . وقد قيل إن سبب ضرب أبى جعفر للإمام مالك أنه أفتى بأن بيعة أبى جعفر لا تلزم لأنها على الإكراه وهذه رواية الأكثر ، وانظر الحطاب فى شرح ديباجة المختصر . وقال حذاق المالكية الإمامة تنعقد بعد الإمام الأول وإن لم يشاور أهل الحل والعقد وإن ذلك حكم ماض حكم به على المسلمين على أن الإمام مولانا إدريس رضى الله عنه من أئمة الاجتهاد

فقد فعل ما أداه إليه اجتهاده فهو مأجور على كل حال وقد تقدم عن سيدى موسى الزياتى أنه من التابعين وليس ببعيد وعليه أجاز بعض القدماء من أهل العلم الذين مدحوه حيث قال :

زرهون أشرف ما فى الأرض من بقع      إذ فيه قبر عظيم من ذوى كرم
وذاك قبر الإمام التابعى الـذى      من آل بيت الرسول سيد الأمم
إدريس أجمل خلق الله فيه إذن      وهو الإمام لهم فى الحشر بالعلم

وممن قال بتفضيل زرهون لدفن مولانا إدريس به الإمام العارف بالله تعالى سيدى موسى بن عبدالله الكيسانى العمرانى إذ قال : زرهون أفضل البقاع فى الغرب لأنه حل فيه إدريس وثوى فيه حياً وميتاً : فحاز زرهون التفضيل من أجله فكما طابت طيبة بحلول رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً كذلك طابت زرهون أيضاً بحلول إدريس حياً وميتاً. وممن قال بتفضيله العلامة الكبير سيدى محمد السبتى رحمه الله تعالى.

وأما الدليل التفصيلى فقد قال الإمام ابن زكرى فى شرح قوله من همزيته :

« نفع مولاه راشد لابنـــه إد      ريس فيه إشارة وإمـــاء »

ما نصه : هذا دليل على فضل سيدنا ومولانا إدريس بن عبد الله على سبيل التفصيل وبيانه أنه لما شب ولده مولانا إدريس الأصغر رضى الله عنه علمه مولى أبيه راشد العلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث وتفسير ولغة وبلاغة وغيرها حتى علوم السياسة إلى أن تمهر فيها ، فإذا كان هـــذا علم المولى التابـــع الخادم فما ظنك بعلم السيد المتبوع المخدوم ، وما استفاد ذلك راشد إلا منه ولا أخذ إلا عنه وقد تقدم أن منشأ راشد وأصله من المغرب من البربر وهو راشد بن منصت الأوربى وأنه سبى مع أبيه فى غزوة موسى بن نصير وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب .

وأما الشرط الثانى الذى هو النسب فقد بلغ العلم بشرفه وصحة نسبه وأنه إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ التواتر المفيد للقطع واليقين ، واستفاض على ألسنة الخاصة والعامة استفاضة بلغت أعلى مراتب الاستفاضة وأقوى أنواع التواتر انعقد على ذلك الإجماع وذكر ذلك وصرح به جماعة من فحول أهل العلم وأكابرهم كمصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام لقى مالكاً وروى عنه كتاب الموطأ وغيره وخرج له النسائى وابن ماجة وغيرهما فإنه ذكر إدريس بن عبد الله وقدومه المغرب وذكر ولده مولانا إدريس قبل وفاة مصعب هذا بسبع وعشرين سنة وعاش مصعب ثمانين سنة أو ما يقرب منها والحافظ بن حزم والقاضى عياض فى المدارك حين ذكر المحمودية والإمام التجيبى ذكر إدريس وولده وأخبارهما والإمام الجزنائى فى كتابه والإمام العارف بالله سيدى الشيخ زروق فى كناشته فإنه ذكره وذكر آباءه ورفع نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . والإمام الولى الصالح موسى بن عبد الله الزياتى والإمام التنسى فى كتابه « الدرر والعقيان » والإمام الكبير العلامة الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون والإمام المسعودى وابن الخطيب التلمسانى وابن السكاك المكناسى والإمام العلامة أبو العباس أحمد الونشريسى والإمام ابن غازى وقد سبق شىء من نظمه والإمام الشاطبى وشيخ الجماعة الإمام ابن القصار والإمام التوزرى المصرى فى شرح الشقراطة وغيرهم ويكفى فى القطع بصحة هذا النسب الكريم انتساب القطبين الكريمين والغوثين الجامعين الشهيرين إمامى طريقة الفتح والوصول إلى انقراض الدنيا مولانا عبد السلام بن مشيش ومولانا أبى الحسن الشاذلى نفعنا الله بهما واعتمادهما له .

الفصل الثانى

## فى سبب وفاة سيدنا ومولانا إدريس رضى الله عنه

وذلك أنه لما اشتهر ذكره وعلا صيته وأمره وفشا خبر غزواته وفتوحاته ودخول الناس فى طاعته واستجابتهم دعوته طوعاً وكرهاً وتسخير القلوب له ، خاف الرشيد أن يعظم أمره حتى يصل إليه لما يعلم من كماله وفضله وحب الناس له ، فاغتم لذلك غماً شديداً فبعث إلى وزيره المدبر لمملكته يحيي بن خالد البرمكى يستشيره فيه وقال إنه من ولد علـى بن أبى طالب وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قوى سلطانه وكثرت جيوشه وعلا شأنه واشتهر اسمه وظهرت فتوحاته ، وقد فتح تلمسان وهى باب إفريقية « ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار » وقد عزمت أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله ثم تفكرت فى بعد البلاد وطول المسافة وتنائى المغرب عن المشرق ولا طاقة لجيوش العراق إلى الوصول إلى السوس من أرض المغرب فرجعت عن ذلك وقد هالنى أمره فأشر على برأيك ، فقال يحيي بن خالد يا أمير المؤمنين من الرأى أن تبعث إليه رجلاً ذا حزم ومكر ولسان وإقدام وجرأة يقتله وتستريح منه ، فقال الرأى ما رأيت فمن يكون الرجل ؟ قال يا أمير المؤمنين أعرف فى جيشى رجلاً اسمه سليمان بن جرير من أهل الحزم والإقدام والفتك والشجاعة والعلم بالجدل والدهاء نبعثه إليه فقال أسرع بذلك فخرج الوزير إلى سليمان بن جرير فعرفه المقصود وما يراد منه

ووعده على ذلك الرفعة والمنزلة العالية، فأعطاه أموالاً جليلة وتحفاً مستظرفة وجهزه بما يحتاج إليه فخرج من بغداد يجد السير مظهراً النزوع إلى إدريس فيمن نزع متبرئاً من الدعوة العباسية ومنتحلاً للطلب حتى وصل إلى المغرب فقدم على مولانا إدريس بمدينة « وليلى » بعد رجوعه من تلمسان فسلم عليه فسأله الإمام مولانا إدريس عن اسمه ونسبه ومن أى البلاد قدم وما سبب قدومه إلى المغرب فذكر له أنه من بعض موالى أبيه وأنه اتصل به خبره فأتاه برسم خدمته لأجل محبته وولايته لأهل البيت فأنس به مولانا إدريس وسكن إلى قوله وسر به سروراً عظيماً وحل من قلبه بمنزلة رفيعة فكان لا يقدر أن يأكل إلا معه لأنه لم يجد فى بلاد المغرب من يأنس به ويستريح إليه غيره وذلك لجهل أهل المغرب وجفاء طباعهم ولما ظهر له فى سليمان المذكور من النبل والأدب والفصاحة والبلاغة . فقال فى المسالك سليمان الجريرى رجل من ربيعة كان متكلماً يرى رأى الزيدية وكان حلواً شجاعاً أحد شياطين الإنس ، فكان إذا جلس مع الإمام مولانا إدريس بين رؤساء البرابر ووجوههم يذكر فضائل أهل البيت وعظيم بركاتهم ويقيم الدليل على إمامة مولانا إدريس ويأتى فى ذلك بالحجج البينة والبراهين القاطعة وبأحاديث وأخبار فأحبه إدريس وكان لا يأكل ولا يشرب إلا معه فلم يزل يرتقب الفرصة ويعمل فى قتله الحيلة فلا يجد إلى ذلك سبيلاً من أجل مولانا راشد الذى لا يزايله ولا يفارقه إلى أن قدر الله تعالى أن غاب راشد ذات يوم فى بعض شئونه فدخل عليه سليمان بن جرير فوجده وحده فجلس بين يديه على عادته يتحدث معه ملياً فلم ير راشداً فانتهز الفرصة فقال سيدى جعلت فداك إنى جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها ثم إنى لما رأيت هذه البلاد ليس بها طيب رأيت أن الإمام أولى بها فخذها تتطيب بها فقد آثرتك بها على نفسى وهى من بعض ما يجب لك على ثم أخرجها

من وعاء ووضعها بين يديه فشكره مولانا إدريس ثم اخذ القارورة ففتحها وشمها . ولما تحصل على مراده منه وتمت حيلته فيه جعل يده فى الأرض وخرج كأنه يريد قضاء حاجة الإنسان فسار إلى منزله وركب فرساً من عتاق الخيل وسباقها كان قد أعدها لذلك وخرج يطلب النجاة، وكانت القارورة مسمومة فلما استنشقها مولانا إدريس صعد السم إلى دماغه فغشى عليه وسقط فى الأرض على وجهه لا يفهم ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه واتصل خبر غشيته بمولاه راشد فأقبل مسرعاً فدخل عليه ووجده يجود بنفسه وقد أشرف على الموت وهو لا يقدر يبين الكلام ، فقعد عند رأسه متحيراً فى أمره لا يعلم ما به حتى قطع سليمان بن جرير مسافة من الأرض وأقام مولانا إدريس فى غشيته إلى آخر النهار وتوفى رحمة الله عليه وكانت وفاته مفتتح شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة فكانت إمارته خمسة أعوام وسبعة أشهر .

وقال النوفلى ثلاثة أعوام وستة أشهر ، فلما توفى نظر راشد إلى سليمان بن جرير فلم يجده فأخبر أنه رئى على أميال كثيرة فعلم حينئذ أنه سمه فركب فى جمع كثير من البربر وخرج فى طلبه وجد السير طول ليله وتقطعت الخيل فى أثره فلم يلحقه من القوم إلا راشد وحده ادركه وهو يجوز وادى ملوية فصاح به راشد وشد عليه بالسيف فقطع يده اليمنى وشجه فى رأسه ثلاث شجات وجرحه فى جسده ولا يصيب له مقتلاً ، وكبا جواد راشد ففر سليمان بن جرير حتى وصل العراق فأخبر بعض الناس أنه لقيه ببغداد مشلولة يده اليمنى وبرأسه وجسده أثر الجراحات وقد برئت .

قال النوفلى : حدثنى من رآه بعد قدومه العراق مكنعاً (« والمكنع » كمعظم المقطوع اليد ) وقال لما أتى سليمان الرشيد ولاه بريد مصرهم ،

وما ظنك برجل تجاسر على جانب النبوءة وتجرأ على حرمة مولانا على وسيدتنا فاطمة والحسن وقتل إمام المسلمين وخليفة سيد المرسلين لأجل حظ دنيوى ، وقدر الله نافذ لا محالة والويل كل الويل لمن قدر الشر على يديه ، ورجع راشد إلى وليلى فأخذ فى جهاز مولانا إدريس فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه « بصحن رابطة باب وليلى ليتبرك الناس بقبره وزيارة تربته » وأما يحيى بن خالد صاحب هذا الرأى الفاسد فقد آل أمره إلى أن سجن طويلاً وقتل شر قتلة وشتت شمل جميع أقاربه وفرق جمعهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ودار عليهم الزمان بضروب الامتحان إلى أن ألقوا على المزابل كالقمامات وهكذا عادة الله فيمن آذى أهل البيت وقصد نكايتهم وينعكس وباله عليه .

وقد علم ما وقع بقاتلى الحسين رضى الله عنه وإجمال قصته أنه لما مات معاوية وأفضت الخلافة إلى يزيد ووردت بيعته على الوليد بن عتبة وكان الوليد عاملا لمعاوية على المدينة أرسل الوليد إلى الحسين وإلى عبدالله ابن الزبير ليلا فأتى بهما فقال بايعا فقالا شلت يمينك لا نبايع سرّاً ولكنّا نبايع على رؤوس الناس إذا أصبحنا فرجعا إلى بيوتهما وخرجا من ليلتهما إلى مكة وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب ، وعزل يزيد الوليد بسبب ذلك حيث كف عن الحسين وابن الزبير ، وأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشوال وذا القعدة وخرج يوم التروية يريد الكوفة وذلك أن أهل الكوفة أرسلوا إليه ليبايعوه وليمحوا عنهم ما هم فيه من الجور ، فنهاه ابن العباس وبين له غدرهم وقتلهم لأبيه وخذلانهم لأخيه وقال فإن أبيت فلا تذهب بأهلك فأبى ، فبكى ابن عباس وقال واحبيباه ، وقال له ابن عمر نحو ذلك فبكى ابن عمر وقبله ما بين عينيه وقال استودعك الله (من قتيل) ونهاه ابن الزبير أيضاً وكان أخوه الحسن قد قال له عند احتضاره : إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفوك

فيخرجوك ويسلموا فتندم ولات حين مناص ، وكان أمر الله قـــدراً مقدوراً .

وقد أخرج البغوى فى معجمه من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبى صلى الله عليه وسلم فأذن له وكان فى يوم أم سلمة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أم سلمة احفظى علينا الباب لا يدخل أحد ، فبينما هى على الباب إذ دخل الحسين فاقتحم فوثب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمه ويقبله فقال له الملك أتحبه قـــال نعم ، قال إن أمتك ستقتله وإن شئت أريك المكان الذى يقتل به فأراه فجاء « بسهلة » أو تراب أحمر فأخذته أم سلمة فجعلته فى ثوبها . قال ثابت كنا نقول إنها « كربلاء » وأخرجه أيضاً أبو حاتم فى صحيحه وروى أحمد نحوه وروى عبد بن حميد وابن أحمد نحوه أيضاً لكن فيه أن الملك جبريل فإن صح فهما واقعتان ، وزاد الثانى أنه صلى الله عليه وسلم شمها وقال ريح كربلاء ( والسهلة بكسر أوله رمل حسن ليس بالرقاق الناعم ) وفى رواية الملا وابن أحمد فى زيادة المسند قالت : ثم ناولنى كفاً من تراب أحمر وقال إن هذا من تربة الأرض التى يقتل بها فمتى صار دماً فاعلمى أنه قد قتل . قالت أم سلمة فوضعته فى قارورة عندى وكنت أقول إن يوماً يتحول فيه دماً ليوم عظيم . وفى رواية عنها فأصبته يوم قتل الحسين وقد صار دماً ، وفى رواية أخرى ثم قال يعنى جبريل ألا أريك تربة مقتله فجاء بحصيات فجعلهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قارورة ، قالت أم سلمة فلما كانت ليلة قتل الحسين سمعت قائلا يقول :

أيها القاتلون جهــلاً حسينــاً ... فابشروا بالعذاب والتذليــل
قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وحامــل الإنجيــل

قالت : فبكيت وفتحت القارورة فإذا الحصيات قد جرت دمــاً .
وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : مر علىّ رضى الله عنه بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى قرية على الفرات وسأل عن اسم هذه الأرض فقيل كربلاء فبكى حتى بل الأرض من دموعه ثم قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقلت : ما يبكيك قال : كان عندى جبريل آنفاً وأخبرنى أن ولدى الحسين يقتل بشاطىء الفرات بموضع يقال له كربلاء ثم قبض جبريل قبضة من تراب أشمنى إياه فلم أملك عينى أن فاضت . ورواه أحمد مختصراً عن على وروى المــلا أن علياً مر بموضع قبر الحسين فقال : « ها هنا مناخ ركابهم وها هنا موضع رحالهم ، وها هنا مهراق دمائهم فتية من آل محمد يقتلون شهداء تبكى عليهم السماء والأرض » وكان مما بعثه على الخروج مخافة أن يستباح حرم مكة بسببه فلما نهاه ابن عباس قال لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلىّ من أن يستحل الحرم بى ، قال ابن عباس فذلك الذى سلى نفسى عنه ولما نهاه ابن الزبير قال له مثل ذلك وفى رواية أنه قال لابن الزبير إن أبى حدثنى أن لمكة كبشاً تستحل به حرمتها فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش ، ولأقتل خارجها بشبرين أحب إلىّ من أن أقتل خارجها بشبر واحد . ولما سار الحسين لقى في مسيره الفرزدق الشاعر مقبلاً من الكوفة فقال له بين لى خبر الناس فقال : « أجل على الخبير سقطت يابن رسول الله صلى الله عليه وسلم » قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء .
وروى أن الحسين رضى الله عنه أنشده :

وإن تكن الدنيا تعد نفيســة ... فإن ثواب الله أعــلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرىء فى الله بالسيف أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلة حزم المرء فى الكسب اجمــل
وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

ولما بلغ كربلاء والتقى الجمعان حمل عليهم وسيفه مصلت في يده وأنشأ يقول :

أنا ابن على الحبر من آل هاشم كفانى به فخراً إذاً حين أفخر
وجدى رسول الله أفضل من مشى ونحن سراج الله فى الناس يزهر
وفاطمة أمى سلالة أحمد وعمى يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقاً وفينا الهدى والوحى بالخير يذكر

وقد وافق رضى الله عنه بهذه الأبيات ما أثنى عليه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج أبو الشيخ ابن حبان في كتاب السنة الكبير عن ربيعة السعدى قال أتيت حذيفة رضى الله عنه فسألته عن أشياء فقال اسمع منى وع وأبلغ الناس إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ترانى وسمعته بأذنى هاتين وقد جاء الحسين بن على رضى الله عنهما فجعله على منكبه وجعل الحسين يغمز بعقبه فى سرة النبى صلى الله عليه وسلم فرأيت كف رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيبة وقد وضعها على ظهر قدم الحسين وهو يغمز بها سرة نفسه لئلا ينبهر وينقطع نفسه من الكلام ثم قال : « أيها الناس هذا الحسين بن على خير الناس جداً وخير الناس جدة ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم وجدته خديجة سابقة نساء العالمين إلى الإيمان وهذا الحسين ابن على خير الناس خالاً وخير الناس خالة ، خاله القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالته زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » ثم وضعه على منكبه فدرج بين يديه ثم قال صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس هذا الحسين بن على جداه فى الجنة وأبوه فى الجنة وأمه فى الجنة وأخوه فى الجنة وعمه فى الجنة وعمته فى الجنة وخاله فى الجنة وخالته فى الجنة » ، ثم قال : « أيها الناس إنه لم يعط أحد من ورثة

الأنبياء الماضين ما أعطى الحسين بن على خلا يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم، يا أيها الناس ان الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول لله صلى الله عليه وسلم وذريته فلا تذهبن بكم الأباطيل » وكان معه فى ذلك الموقف نيف وثمانون نفساً وكان معه أربعون فارساً ومائة راجل وأعداؤه عشرون ألفاً فثبت ثباتاً باهراً وقاتل قتالاً لم يسمع بمثله وقتل عدداً كثيراً من أبطالهم وشجعانهم ثم قتل رحمه الله تعالى ورضى عنه ، وقتل معه من إخوته وبنيه وبنى أخيه الحسن ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشر رجلاً وقيل أحد وعشرون . قال الحسن البصرى : ما كان على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه ولولا ما كادوه به من أنهم حالوا بينه وبين الماء لم يقدروا عليه . وكان موته فى يوم عاشوراء عام إحدى وستين ، أخرج أبو الشيخ عن يعقوب بن عثمان قال كنت فى ضيعتى فصليت العتمة ثم جلسنا جماعة ثم ذكروا الحسين فقال رجل ما أعان أحد على قتله إلا أصابه قبل أن يموت بلاء ومعنا شيخ كبير فقال أنا ممن شهده وما أصابنى أمر أكرهه إلى ساعتى هذه قال فأطفىء السراج فقام ليصلحه فأخذته النار فجعل ينادى النار وألقى نفسه فى الفرات ينغمس فيه فأخذته النار حتى مات . وقال السدى أنا والله رأيته كأنه حممة ، وأخرج منصور بن عمار عن أبى محمد الهلالى قال اشترك منا رجلان فى قتل الحسين فابتلى أحدهما بالعطش فكان لو شرب راوية ما روى ، وابتلى الآخر بطول ذكره فكان إذا ركب الفرس يلويه على عنقه كأنه حبل . ونقل سبط ابن الجوزى عن الواقدى عن ابن الرماح قال كان بالكوفة شيخ أعمى قد شهد قتل الحسين فسألناه عن ذهاب بصره فقال كنت فى القوم وكنا عشرة غير أنى لم أضرب بسيف ولم أطعن برمح ولا رميت بسهم فلما قتل الحسين رجعت إلى منزلى وأنا صحيح وعيناى كأنهما كوكبان فنمت تلك الليلة فأتانى آت فى منامى

فقال أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما لى ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذنى وانطلق بى إلى مكان فيه جماعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حاسر عن ذراعيه وبيده سيف وبين يديه نطع وإذا أصحابه العشرة موجودون بين يديه فسلمت عليه فقال لا سلم الله عليك ولا حياك يا عدو الله الملعون أما استحيت منى تهتك حرمتى وتقتل عشيرتى ولم ترع حقى ، قلت يا رسول الله ما قاتلت قال نعم ولكنك كثرت السواد ، وإذا بطست عن يمينه فيه دم الحسين فقال اقعد فجثوت بين يديه فأخذ مروداً فأحماه ثم كحل به عينى فأصبحت أعمى كما ترون .

وحكى هشام بن محمد عن القاسم بن الأصبغ قال لما جىء برأس الحسين وأصحابه إلى الكوفة إذا بفارس من أحسن الناس وجهاً قد علق فى لبب فرسه رأس غلام كأنه القمر ليلة تمامه والفرس يمرح فإذا طأطأ رأسه لحق الرأس بالأرض فقلت له رأس من هذا قال رأس العباس ابن على قلت وأنت من ؟ قال حرملة بن الكاهن الأسدى . قال فلبثت أياماً وإذا بحرملة ووجهه أسود من النار فقلت رأيتك يوم حملت الرأس وما فى العرب أنضر وجهاً منك وما أرى اليوم أقبح ولا أسود وجهاً منك . فبكى وقال منذ حملت الرأس إلى اليوم ما تمر على ليلة إلا واثنان يأخذان بضبعى ثم ينتهيان بى إلى نار تتأجج فيدفعانى فيها وأنا انكص فتسفعنى كما ترى . ثم مات على أقبح حال . والعباس هذا قتل مع الحسين هو وشقيقه عثمان وجعفر . وعبد الله أمه أم البنين بنت حزام ابن خالد الوحيدية ثم الكلابية وقتل معه أيضاً أبو بكر بن على وأمه ليلى بنت معود بن خالد النهشلى ومحمد بن على قتل معه أيضاً . أمه أم ولد .

وبيان القضية أن المختار بن أبى عبيد تبعته طائفة من الشيعة وقتل من شهد قتل الحسين بأقبح القتلات ولم يبق واحد من الستة الآلاف الذين

قاتلوا الحسين مع عمر بن سعد بن أبى وقاص وقتل عمر بن سعد وخص شمر بن ذى الجوشن بمزيد نكال ووطئت الخيل صدره وظهره وذلك أن شمر هذا قبحه الله هو الذى تولى قتل الحسين وجرأهم على ذلك ، وذلك أن عمر بن سعد كان عاملاً لابن زياد فوجهه ابن زياد لقتل الحسين ومعه ستة آلاف فبعث عمر للحسين يطلب الاجتماع به فى خلوة لكراهية قتاله فاجتمعا فقال عمر ما جاء بك فقال أهل الكوفة ، فقال أما عرفت ما فعلوا معكم فقال : « من خدعنا فى الله انخدعنا له » فقال فما ترى الآن قال دعونى أرجع فأقيم بمكة أو آتى المدينة أو أقيم ببعض الثغور فقال أكتب إلى ابن زياد فكتب إليه فهم بإجابته لذلك فقال شمر بن ذى الجوشن الكلام لا يقبل منه حتى ينزل على حكمك فقال ابن زياد نعم ما رأيت ، وكتب إلى ابن سعد إنى لم أبعثك لتكون شفيعاً عندى فإن نزل على حكمى ووضع يده فى يدى فابعث به إلى وإن أبى فاقتله وأصحابه وأوطىء الخيل صدره وظهره ومثل به ، وإن أبيت فاعتزل علمنا وسلمه إلى شمر بن ذى الجوشن ودفع الكتاب إلى شمر وقال إن فعل ما أمر به وإلا فاضرب عنقه وأنت الأمير على الناس ، فلما وصل شمر قال له ابن سعد لا أهلا بك والله ولا سهلا يا أبرص لقد رددته عما كان فى عزمه، وبعث إلى الحسين فأخبره فقال والله لا وضعت يدى فى يد ابن مرجانة أبداً فقاتلوه ، وناداه شمر الساعة ترى الهاوية فقال الحسين الله أكبر اخبرنى جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت كأن كلباً أبقع ولغ فى دماء أهل بيتى وما إخالك إلا إياه . ثم إن سنان بن أنس النخعى وشمر بن ذى الجوشن اشتركا فى قتل الحسين وكان شمر أبرص فأما سنان فجاء إلى ابن زياد وقال :

أوقر ركابى فضة وذهبا ... إنى قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال حيث علمته كذلك فلم قتلته ؟ وأما شمر ففعل به المختار ما سبق وقد شكر الناس أولا للمختار انتصاره لأهل البيت لكنه أنبأ فى الأخير عن خبث وكذب على أهل البيت فزعم أنه يوحى إليه وكان على ابن الحسين يلعنه ويقول كذب على الله وعلينا . وإليه تنسب الطائفة الكيسانية فإنه كان يلقب بكيسان، وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي وكان سليمان بن صرد وهو من الصحابة ممن كاتب الحسين فى القدوم إلى الكوفة فيما ذكره ابن عبد البر ، ثم إنه لم يقاتل معه فندم هو ومن معه بعد موت الحسين على خلافه وقالوا ما لنا توبة إلا أن نقتل أنفسنا فى الطلب بدمه فخرجوا الى الشام وولو امرهم سليمان بن صبرد وسموه أمير التوابين وإنما قصدوا الشام لأن ابن زياد الآمر بقتل الحسين لما بلغه موت يزيد هرب من الكوفة إلى الشام فانتهى إلى مروان بن الحكم فخرج إليهم ابن زياد المذكور فى ثلاثين ألفاً وكان أصحاب سليمان أربعة آلاف فاقتتلوا أياماً ثم التقوا يوماً فكان النصر لسليمان فى أول النهار ولابن زياد فى آخره ثم قتل سليمان وهو ابن ثلاث وتسعين سنة وافترقوا ، ثم مات مروان ، ثم نزل ابن زياد الموصل فى ثلاثين ألفاً فجهز إليه المختار إبراهيم بن الأشتر في طائفة سنة تسع وستين فالتقى بابن زياد فقتل ابن زياد على الفرات فى يوم عاشوراء وكان من غرق من أصحابه أكثر ممن قتل ، وبعث الأشتر برأس ابن زياد مع رؤوس أصحابه إلى المختار فألقيت فى موضع رأس الحسين وأصحابه ونصب رأس ابن زياد في المكان الذى نصب فيه رأس الحسين ، ثم ألقاها فى اليوم الثانى فى الرحبة.وروى الترمذى عن عقبة عن عمارة بن عمير قال لما جىء برؤوس عبد الله بن زياد وأصحابه نصبت فى المسجد فانتبهت والناس يقولون قد جاءت فإذا حية قد جاءت تتخلل الرؤوس حتى دخلت فى منخرى عبد الله بن زياد ثم مكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ثم قالوا قد جاءت ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً . وروى

الحافظ محمد بن إسحاق بن منده عن عبد الملك بن عمير قال لقد رأيت فى هذا القصر عجباً ، يعنى قصر الإمارة بالكوفة دخلت على عبد الله بن زياد وهو على سرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس وعليه رأس الحسين ثم دخلت على المختار فى ذلك السرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس عليه رأس عبد الله بن زياد ثم دخلت على مصعب بن الزبير فى ذلك الموضع على ذلك السرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس عليه رأس المختار ثم دخلت على عبد الملك ابن مروان فى ذلك الموضع على ذلك السرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس عليه رأس مصعب . هذا بعض ما حصل لهم فى الدنيا وأما ما يحصل لهم فى الآخرة من أليم عذابه وعظيم عقابه فما لا تحويه ولا تحصيه كتب فقد قال سليمان بن يسار وجد حجر مكتوب عليه :

لا بد أن ترد القيامة فاطم　　وقميصها بدم الحسين ملطخ
ويل لمن شفعاؤه خصماؤه　　والصور فى يوم القيامة ينفخ

قال السمهودى وهو شاهد لما أخرجه ابن الأخضر فى العترة الطاهرة من حديث على الرضى عن أبيه موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه على زين العابدين عن أبيه على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحشر ابنتى فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بدم فتتعلق بقائمة من قوائم العرش فتقول يا عدل احكم بينى وبين قاتل ولدى فيحكم لابنتى ورب الكعبة » وعن محمد بن سيرين قال وجد حجر قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثمائة سنة مكتوب عليه بالسريانية فنقلوه للعربية فإذا هو :

أترجو أمة قتلت حسيناً　　شفاعة جده يوم الحساب

وأخرج ابن الجراح من طريق أبي لهيعة عن أبي قتيل قال لما قتل الحسين بعث برأسه إلى يزيد فنزلوا أول مرحلة فخرجت عليهم من الحائط يد معها قلم حديد فكتبت سطراً بدم « أترجو أمة قتلت حسيناً... إلخ » البيت المتقدم فهربوا وتركوا الرأس .



## الفصل الثالث

# فى نشأة نجله البدر المنير

وتربيته بأتم أدب وأوفى توقير ، وقيام وزرائه به من بعده إلى استكمال قيامه بأعباء الخلافة وبيعته واستكمال متابعة أبيه فى علومه وتصرفاته وسننه .

ففى المطرب الأنيس قال محمد بن عبد الملك الوراق فى كتابه المقياس والبكرى والبرنسى وغيرهم ممن اعتنى بتاريخ الأدارسة أن الإمام إدريس بن عبد الله لما توفى لم يترك ولداً مولوداً إلا أنه ترك جارية من البربر اسمها كنيزة حاملاً منه في الشهر السابع من حملها فجمع راشد رؤساء القبائل ووجوه الناس بعد فراغه من دفن مولانا إدريس فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولداً إلا حملا بجاريته كنيزة وهى فى الشهر السابع من حملها وقال لهم فإن رأيتم أن تصبروا حتى تضع حملها فإن كان ذكراً ربيناه فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تبركاً بأهل البيت وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم من ترضونه لذلك قالوا أيها الشيخ المبارك ما لنا رأى إلا ما رأيت فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمرنا كما كان مولانا إدريس وتصلى بنا وتحكم بيننا بما يقتضيه الكتاب والسنة حتى تضع الجارية فإن وضعت غلاماً ربيناه وبايعناه وان وضعت جارية نظرنا فى امرنا على انك احق الناس به لفضلك ودينك وعملك فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا

فقام بأمر البربر حتى تمت للجارية أشهر حملها فوضعت غلاماً أشبه الناس بوالده إدريس فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا هذا إدريس بعينه كأنه لم يمت فسماه إدريس باسم أبيه وقام بأمره وأمر البرابرة ، وكفله حتى فطم وشب وأدبه أحسن أدب ، وأقرأه القرآن فحفظه وله من السنين ثمانية أعوام ثم علمه العلم كما يأتى ، قلت فى هذا دليل على نصح راشد رضى الله عنه للأمة ولذرية مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته فجزاه الله أحسن الجزاء .

وولد سيدنا إدريس رضى الله عنه يوم الاثنين من شهر رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائة وكانت صفته الخلقية صفة والده رضى الله عنه كأنه هو ، قال فى الأنيس كانت صفة إدريس بن إدريس كصفة أبيه ، كان أبيض اللون مشرباً بحمرة تام القد جميل الوجه أقنى الأنف مليح العينين واسع المنكبين شثن الكفين أفلج أبلج أدعج فصيحاً بليغاً أديباً عالماً بكتاب الله قائماً بحدود الله راوياً للحديث عارفاً بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصل الأحكام ورعاً تقياً جواداً كريماً حازماً بطلا شجاعاً شهماً مقداماً له عقل راجح وذهن راسخ وإقدام فى مهمات الأمور اه . (البياض المشرب بحمرة هو الذى مازجته الحمرة وهو لون جده صلى الله عليه وسلم كما سبق ، والدعج شدة سواد العين مع سعتها . والقنى ارتفاع قصبة الأنف مع احديداب فى وسطه ، والقد القامة ، والبهجة الحسن ، والاستواء الاعتدال ، والبلج فرق ما بين الحاجبين من الشعر ، والفلج فى الأسنان انفراج ما بين الثنايا وهو من أوصاف الملاحة وأسباب الفصاحة ، والمحيا الوجه ، والصولة القوة والتمكن والاعتلاء والظهور ) .

ومن شجاعته رضى الله عنه ما ذكر فى روض القرطاس قال داود ابن القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوربى شهدت إدريس بن إدريس رضى

الله عنه فى بعض غزواته (للخوارج الصفرية من البربر) فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل مولانا إدريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال فقاتلناهم قتالاً شديداً فكان مولانا إدريس يضرب فى الجانب مرة ثم يكر إلى الجانب الثانى فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار فرجع إلى رايته ووقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه فطفقت أنظر له وأديم الالتفات إليه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم فأعجبنى ما رأيت من شجاعته وقوة جأشه فالتفت إلى وقال يا داود ما لى أراك تديم النظر إلى ؟ فقلت أيها الإمام أعجبنى منك خصال ما رأيتها لغيرك ، قال ما هى يا داود ، قلت أولها ما رأيت من حسنك وثبات قلبك وجمالك وطلاقة وجهك وما خصصت به من البشر عند لقاء عدوك ، قال ذالكم بركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا ووراثة عن أبينا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال قلت وأراك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل الريق فى فمى فلا أجده ، قال يا داود ذلك لاجتماع عقلى وقوة جأشى عند الحرب ، وعدم ريقك من طيش لبك وافتراق عقلك ولما خامرك من الرعب . قال داود فقلت أيها الأمير وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلبك فى سرجك وقلة قرارك في مكانك قال ذلك منى زعم إلى القتال ، وعزم صداقة وهو أحسن فى الحرب ، ثم أنشأ يقول :

أليس أبونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نشتكى مما يؤول إلى النصب

فتعجب الناظر إليه رضى الله عنه من طلاقته وبشره وعدم تغير حسنه وتأثر جماله عند محاربة أعدائه وقتالهم قبل ظهور أمارات الفتح وبشائر الظفر ، وإنه لخليق بالتعجب فإن ذلك من المواطن التى تنقبض

فيها النفوس وتشمئز القلوب وتضيق الصدور وتبدل الأخلاق لا سيما رئيس القوم وكبير الجيش الذى عليه المدار وإليه الملجأ والفرار ، ومن ثم أجاب رضى الله عنه بأن ذلك ليس من طوق البشر ومما يتعارفه الناس أهل القوى والقدر وإنما ( هو مدد جاء من حضرة الرسالة ) وهو معنى قوله ذلك بركة جدنا صلى الله عليه وسلم وما أجاب به في مسألة الريق هو عين الحق فقد قال السهيلى فى الروض قلة الريق من الحصر وهو ضيق الصدر وكثرته من قوة النفس وثبات الجأش . قال العلامة ابن زكرى فى شرح همزيته ما نصه : « ولما تمهر مولانا إدريس فى العلوم وبلغ إحدى عشرة سنة وبلغ فى هذا السن مبلغ الرجال تأهل بذلك للخلافة واستوفى فيها الشروط » قال البكرى والبرنسى وغيرهما لما كمل لإدريس من العمر إحدى عشرة سنة ظهر من ذكائه ونبله وعقله وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة فأخذ له راشد البيعة على سائر البرابر ثم لما توفى راشد باشر إدريس القضاء والفصل بين الناس بنفسه وقام بأمور باقى الأحكام والشرائع حتى قدم إليه عامر بن سعيد القيسى فاستقضاه كما يأتى ، وكان لما بويع قام بأشراط البيعة وصعد المنبر وخطب فقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوكل عليه . وأعوذ به من شر نفسى ومن شر كل ذى شر ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . أيها الناس أنا الذى قد وليت هذا الأمر ، الذى يضاعف للمحسنين فيه الأجر ، وللمسيئين الوزر ، ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمد الأعناق إلى غيرنا . فإن الذى تطلبونه من الحق إنما تجدونه عندنا » فمن تأمل هذه الخطبة وأعطاها حقها من النظر ظهر له

من فصاحة الإمام إدريس وبلاغته ومعرفته بطرق الوعد والوعيد وقصده النصح للأمة وذكر الأمر والنهى وإيثاره رضى الله عنه على هوى النفس ما يبهر العقول ويحير ألباب الفحول، هذا كله وهو ابن إحدى عشرة سنة وأشار بقوله وليت إلى أنه لا رغبة له فى ذلك ولا شره منه إليه وأشار بقوله الذى يضاعف إلخ إلى ما ورد فى الأحاديث من ثواب أئمة العدل ومضاعفة أجورهم لما يقومون به من حفظ الأمة وكف شر الفتنة عنهم وإعانتهم على المصالح الدينية والدنيوية ومن وزر أهل الجور ومضاعفة العقوبة لهم لما يترتب على جورهم من المفاسد الدينية والدنيوية فى حق الخاصة والعامة (والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة) وأشار بقوله ونحن إلخ إلى تطبيب نفوس المؤمنين وإدخال السرور عليهم بتعريفهم بقصده وطويته أنه لم يضمر لهم إلا الخير ولم يسع لهم إلا فى الصلاح ثم نهاهم عن التشوق إلى الغير لئلا تفترق كلمتهم ويختل أمرهم وليكونوا من المؤثرين لذرية مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستحقون رضاه ووجه رجحان التمسك بهم والاهتداء بهديهم بقوله فإن الذى تطلبونه من الحق إلخ قال ذلك لما علمه من نفسه من التصميم على المبالغة فى النصح للخلق والعزم على بذل السعى لهم في المصالح مع ما عنده من العلم بذلك ، وقد سبقه إلى مثل هذه المقالة والده فإنه لما بويع بالمغرب خطب الناس وقد قال : « أيها الناس لا تمد الأعناق إلى غيرنا فإن الذى تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا » ثم قال : ذكر غير واحد أن راشداً لم يمت حتى أخذ البيعة للإمام مولانا إدريس بالمغرب وأن الإمام مولانا إدريس لما كمل له من العمر إحدى عشرة سنة ظهر ذكاؤه ونبله وقوة جأشه وثبات جنانه على صغر سنه فتسارع الناس إلى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يده ، فبايعه كافة قبائل أهل المغرب . فاتصل خبره بإبراهيم ابن الأغلب عامل إفريقية فحاول

قتل راشد وذلك سنة ثمان وثمانين ومائة فقام بأمر إدريس بعده أبو خالد ابن يزيد بن إلياس العبدى فأخذ له البيعة على جميع قبائل البربر ( بعد قتل راشد بعشرين يوماً ) وسار رضى الله عنه بسيرة سلفه الصالح بنشر العدل وإظهار الحق والتزام الاستبانة ، وأقام السنة ونصر الشريعة ونصح لله ولرسوله وللمؤمنين وأعلى منار الدين وشهر شرائع الإسلام فاستقام أمره وتمهد له الملك وعظم سلطانه وقويت جنوده وأتباعه ووفدت عليه الوفود من البلدان وقصده الناس من كل ناحية ومكان فأقام بقية سنة ثمان وثمانين التى بويع فيها يعطى الأموال ويصل الوفود ويستميل الرؤساء والأشياخ .

وفى سنة تسع وثمانين ومائة وفد عليه وفود العرب من إفريقية وبلاد الأندلس فى نحو خمسمائة فارس فسر بوفادتهم وأجزل صلاتهم ورفع منازلهم واستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدى ، وكان من فرسان العرب وساداتها . ولمصعب آثار عظيمة في الأندلس ومشاهد فى غزو الروم كثيرة . واستقضى منهم عامر بن سعيد بن محمد القيسى وكان رجلا صالحاً ورعا سمع مالكاً وسفيان الثورى وروى عنهما كثيراً ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد ثم جاوز إلى العدوة فوفد منها على إدريس فيمن وفد عليه من العرب ولم تزل الوفود ترد عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق . وفى سنة اثنتين وتسعين ومائة وفد عليه جماعة من الفرس من العراق فأنزلهم بناحية عين علوان وكانت إذ ذاك أرضاً ذات ماء وكلخ وبسباس وأشجار برية وكان بها عبد أسود اسمه علوان يقطع الطريق هنالك قبل بناء مدينة فاس ، وكان الناس يتحامونها ولا يمرون بها ولا يسلكونها من أجل علوان المذكور والتفاف الأشجار وهدير المياه والأنهار وكثرة الوحوش المؤذية فكان الرعاة يتحامونها بمواشيهم ولا يسلكها إلا الجماعة من الناس ، فعرف الإمام مولانا

إدريس بخبر علوان حين شرع فى بناء عدوة الأندلس فأمر بالقبض عليه ، فخرجت الخيل فى طلبه فقبض عليه فأتى به إليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة هنالك كانت على رأس العين ، وكان رضى الله عنه ملازماً للحق فى تصرفاته جارياً على قانون الشريعة فى أحكامه لا يعدل عن الحق ولا ينحرف عن السنة فألف الناس منه ذلك حتى عمهم الهناء وأمنوا الجور ، فكان يأخذ الجزية وزكاة الأموال على منهاج الحق ثم يصرف ذلك إلى مستحقيه وكانت تأتيه الغنائم فى غزوات أصحابه فيقسم الأربعة الأخماس على المجاهدين ويصرف الخمس فى مصارفه .

وفى عام سبعة وتسعين ومائة خرج إلى بلد المصامدة فوصل إليها فدخل مدينة نفيس مدينة أغمات وفتح بلاد سائر المصامدة كانت بقيت بعد أبيه اخترمته المنية قبل أن يصل إليها وأسلم على يديه خلق كثير وحصلت له منها غنائم كثيرة ففرقها وما أبقى منها قليلا ولا كثيراً إلا قدر الكفاف لأهله ، وقد تقدم قوله : « إن الذى تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا » (تنبيه) تقدم أن قاضيه كان ممن قرأ على مالك بن أنس وسفيان الثورى فالظاهر أنه كان على مذهب أحدهما يحتمل أنه كان على مذهب الأوزاعى لقول القاضى عياض في المدارك إن أهل المغرب والأندلس كانوا قبل أن يصل إليهم مذهب مالك على مذهب الأوزاعى ورأى الكوفيين . فلما أتى أصحاب مالك بمذهبه رفع ذلك من المغرب اهـ ويحتمل أنه كان مجتهداً مستقلاً لم يتقيد بمذهب أحدهما وكان كذلك جماعة من الأكابر ثم بعد ذلك وقع التقيد بالمذهب .

ثم إنه رضى الله عنه بعد أن غزا ما لم يصله أبوه من بلدان المغرب وعمرانه وأسلم بدعوته من بقى من أهل الشرك بالمغرب وما بقى إلا من رضى بذمة المسلمين وأداء الجزية لهم نشر العلوم وأوضح الحق ببيان الشريعة والحقيقة ومهد الجمع بينهما حتى عرفت أصول الدين وفروعه

وتبين كمال الإيمان على ما هو عليه فثبت الدين فى المغرب وتقرر وصارت شجرته فيه أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فعلم ببركته أهل المغرب بعد أن جهلوا ، وعملوا بعد ما ضيعوا ، وأقبلوا بعد ما أعرضوا ، واتصلوا بعد ما انفصلوا ، وقربوا بعدما انقطعوا ، واستأنسوا بعد ما استوحشوا ، وعزوا بعد ما ذلوا ، وغلوا بعدما رخصوا ، وعلوا بعد ما سفلوا ، فسبحان من أحياهم به وبأبيه بعد الموت ، وتداركهم ببركتهما قبل الفوت . ولما تمهد ملك مولانا إدريس بن مولانا إدريس جدد من معالم الدين ما بلى وأظهر ما خفى وأحضر ما غاب وغبر ، وأحيا ما درس واندثر فكان رضى الله عنه بشارة جده صلى الله عليه وسلم فى قوله : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » أو « إلى قيام الساعة وهم بالغرب » أو ( المغرب ) على اختلاف رواته كما سيأتى ما ظهر حصول هذه المزية العظمى إلا بعد وروده رضى الله عنه أرض المغرب ، ومن يوم سطع نوره بالمغرب لا يزيد الدين به إلا ظهوراً واتضاحاً فصار بحلوله شمساً مشرقة وغربت منه به سائر غياهب الجهل والضلالات لشروق الدين والعبادات . قال العلامة ابن زكرى فى شرح قوله من همزيته :

زال عن غربنا غروبه لما أشرقت فيه منكم الأضواء

ما نصه : إنما سمى الغرب غرباً ومغرباً لأن الشمس تغرب فى ناحية وجهته كما قال سيدنا كعب الأحبار رضى الله عنه مخبراً بذلك ابن عباس لما سأله عن مغرب الشمس قال أجدها تغرب فى ماء وطين بالمغرب ، وسمى الشرق مشرقاً لأن الشمس تشرق من ناحيته وجهته ولذا قال الشاعر :

ففى الشرق من أجل الشروق مسرة وفى الغرب من أجل الغروب كروب

ولما كان المغرب فى زمن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين مملوءاً كفراً ومغموراً جهلاً لم يدخله الإيمان ولم يبلغه الفتح كان كأنه قد غرب وفقد واضمحل بالغروب المعنوى الذى هو غيبة شمس الإيمان والمعرفة وهو أقوى من الحسى ، فلما من الله على أهله بقدوم مولانا إدريس رضى الله عنه ونفعنا به آمين ففتحه ودعا أهله إلى الله وهداهم الله على يديه وببركته زال عنه ذلك الغروب والفقر فأحياه الله بالإيمان وفتح بصائر أهله وأشرقت فيهم شموس المعارف والعلوم كما سيأتى فتبدل غروبه بالشروق وخفاؤه بالظهور ونكارتـه بالمعرفة (وذلك مدد منه صلى الله عليه وسلم) وفيض من بحر فضله وإشراق من عظيم نوره وبين الغرب والغروب التجنيس الناقص وبين الغرب والإشراق الطباق . ثم قال :

لا غرابة أن عاد ذا الغرب شرقاً لشموس المعانى فيه ضياء

ولما قدم مولانا إدريس رضى الله عنه المغرب ودعا أهله إلى الله وأرشدهم إلى دينه ، فاستجابوا له وحبب الله لهم الإيمان على يـده وخرجت ظلمة الكفر ، وأشرق فيه نور الإيمان وتجلت شموس المعرفة فصار الغرب شرقاً لشروق شمس المعانى بطلوعها فيه وعم شعاعها . ولا غرابة فى ذلك وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فكم من موضع عبد الله فيه بعد الإشراك وكم من محل رحم الله أهله بعد الغضب ، وقربهم بعد البعد ورضى الله عنهم بعد السخط وفرج عنهم بعد الشدة ووصلهم بعد القطع ، وانظر مسجد سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان موضعه مقبرة للمشركين فنبشها وجعل فيها مسجده . ولا غرابة أيضاً فى صيرورته شرقاً بقدوم سيدنا ومولانا إدريس لشدة قربه من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفته بسنته وإرثه إياه فى الدعاء إلى الله والدلالة عليه . وبين غرابة

وغرب التجنيس الناقص وبين غرب وشرق الطباق . ثم قال أيضاً :

ونشا الحق فيه بعد اغتراب ولأهليه فيه كان البقاء

إشارة لما ذكره الشيخ زروق فى شرح الرسالة بالتعريف بالإمام مالك رضى الله عنه قال ويكفى فى أرجحيته كونه إمام دار الهجرة فى خير القرون ومتبوع أهل المغرب الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة كما صح فى الحديث ، وإن اختلفت روايته ا ه . وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر بإسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » . قال المناوى زاد فى رواية « من أهل المغرب » وما ذكره الشيخ زروق ظاهر من لفظ الحديث ، وقال صاحب المشارق فى قوله لا يزال أهل المغرب بعين الرواية التى ذكرت فى بعض طرق مسلم ، ذكر يعقوب ابن شيبة عن يحي بن المدينى قال المراد بالغرب « الدلو » وعنى الغرب لأنهم أصحابها لا يستقى بها أحد غيرهم . وفى حديث معاذ وهم اهل الشام والغرب المكان والشام غربى الحجاز ، وقال المراد أهل الحدة . قال أهل اللغة يقال فى لسان فلان حدة . وزاد فى حديث أبى أمامة ، قالوا : يا رسول الله وأين هم ؟ قال ببيت المقدس ، قال : ويمكن الجمع بين الأخبار بأن المراد قوم ببيت المقدس وهى شامية ويستقون بالدلو وتكون لهم حدة فى قتال العدو . ا ه كلام ابن حجر ، وعلى حمل الشيخ زروق رضى الله عنه ونقله غير واحد وأقره . فهما طائفتان الطائفة التى فى الشام هم الذين يقتلون الدجال مع سيدنا عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وإليه الإشارة بما فى الحديث الأخير «والذى نفسى ليجدن ابن مريم فى أمتى » — الحديث — والله تعالى أعلم . وهذه الطائفة الجليلة نفعنا الله بهم فى صحيفة سيدنا إدريس رضى الله عنه إذ بسببه وصل الإيمان واليقين وبين الضمير المجرور يعنى باعتبار

معاده واغترابه التجنيس الناقص . ثم قال أيضاً :

أخصب الدين فيه من بعد جدب إذ غدا له من نداك ارتــواء
وتمكن منه حتى انتفى أهـــ ــل الابتداع وماتت الأهواء

ذكر أهل العلم من فضائل المغرب ان الله حماه من فرق أهل المبتدعة كالمعتزلة والرافضة والجبرية وغيرهم وقد كان أهل المغرب على أديان مختلفة و آراء فاسدة . فلما كانت ولاية يزيــد بن معاوية ولى عقبة ابن نافع الفهرى على بلاد المغرب سنة إثنتين وستين من الهجرة ، وقد مضت من ولايته سنتان فاستفتح عقبة إلى أن بلغ البحر الأعظم فى بلاد مــاسة وأدخـــل فيه قوائـــم فرسه ، ثم جعل يقول وعليكم السلام فقال له اصحابه : على من تسلم يا ولى الله ، فقال إن قوم يونس عليه السلام سلموا على وسلمت عليهم ولولا البحر لأريتكم اياهم ، فأسلم على يديه بعض من المغرب ، وحين رجع منه ارتد بعض من أسلم . ثم ولى الوليد بن عبد الملك بن مروان فولى موسى بن نصير على المغرب سنة اثنتين وسبعين فسار حتى بلغ طنجة وسبتة وجاز فى بر الأندلس وافتتحه مع مولاه طارق بن زياد وأسلم على يديه بعض اهل المغرب ، وحين رجع عنه ارتد أيضاً بعض من اسلم . قال الشيخ بن ابى زياد ارتد البرابرة بالمغرب اثنتى عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام إلا فى عهد ولاية موسى ابن نصير فما بعده . أى مدة مولانا إدريس . وقال فى كتاب العبر ارتد اهل المغرب مرات إلى أن طهرهم من ذلك موسى بن نصير ومولانا إدريس ، وفى بعض التواريخ أهل المغرب إرتدوا إثنتى عشرة مرة إلى أن فتح الله عليهم بقدوم إدريس فمن بركته تقرر إسلامهم وزاد خيرهم وغاض شرهم . وكان ولد على عهد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصح له صحبة وكان ابن خالة عمرو بن العاص ولاه

عمرو بن العاص إفريقية وهو على مصر فانتهى إلى لواتةومزاتة فاطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سبتة فقتل وسبى وذلك سنة احدى وأربعين وافتتح فى سنة اثنتين واربعين « غدامس » فقتل وسبى وافتتح سنة ثلاث وأربعين كورة من كور السودان وافتتح « ودّان » وهى من حيز برقة من بلاد إفريقية وافتتح عامة البرابر وهو الذى اختط القيروان فنهض إليه عقبة فلم يعجبه فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم وكان وادياً كثير الأشجار غيضة مأوى الوحوش والحيات فأمر بقطع ذلك وإحراقه واختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين ، وروى أنه لما وقف على القيروان قال يا أهل الوادى اظعنوا فإنا نازلون وكررها ثلاثاً قال الراوى فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا ويخرج من تحته حية أو غيرها من تلكم الحيوانات المفترسة حتى هبطوا بطن الوادى ثم قال: انزلوا بسم الله ، وقتل عقبة بن نافع سنة ثلاث وستين بعد أن غزا السوس الأقصى قتله كسيلة بن لمزم الأوربى وكان نصرانيّاً ثم قتل كسيلة فى هذا العام قتله قيس بن زهير البلوى ، ويقولون إن عقبة بن نافع مستجاب الدعوة والله أعلم اهـ . هذا ما يتعلق بعقبة بن نافع .

وأما موسى بن نصير فهو الإمام الكبير فاتح الأندلس . قال الإمام ابن اسحاق فى كتابه مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ، قال كان موسى بن نصير مهاباً ذا رأى وحزم وشجاعة ، قال له سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ما كنت تفزع إليه عند الحرب قال الدعاء والصبر ،قال فأى الخيل رأيت أصبر قال الشقر ،قال أخبرنا عن الروم قال : « هم أسد فى حصونهم نساء فى مراكبهم ، إن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غلبة فأوعال تذهب فى الجبال » قال كيف قتالك للعدو قال ما هزمت لى راية قط ولا رد لى جمع ولا نكب المسلمون منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين ، ولما فتح الأندلس جرت

لديها عجائب وأمور طويلة وانتهى إلى آخر حصن من حصون الأندلس فاجتمع الروم لحربه فكانت بينهم وبينه وقعة مهولة وطال القتال وجال المسلمون جولة بالمدينة فأمر موسى بن نصير بسرداقه فكشف عن بناته وحرمه حتى برزن بين الصفوف حتى يراهن الناس ثم رفع يديه بالتضرع والبكاء ، فأطال فكسرت بين يديه أغماد السيوف وصدقوا اللقاء ففتح عليهم . ثم قدم إلى مصر فى سنة خمس وتسعين وتوجه إلى الوليد ابن عبد الملك بما معه من السبي والغنائم . وقال الليث بن سعد إن موسى بن نصير بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف أخرى ولما افتتح الأندلس جاءه رجل فقال ابعث معى رجالاً أدلك على كنز فبعث معه رجالاً فقال لهم انزعوا ما ها هنا فنزعوا فسال عليهم من الياقوت والزبرجد والمال ما الله به عليم قال الليث بن سعد : إن كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب بنظم سلسلة الذهب وباللؤلؤ والياقوت فكان الرجلان ربما وجداها فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بالفأس فيقسماها . ولما افتتح الأندلس رجع إلى إفريقية وله نيف وستون سنة وهو يجر الدنيا بين يديه جراً (١) .

الذهب والجواهر والتيجان والثياب الفاخرة والسجاد وفى ذلك مائدة سليمان قومت بمائة ألف دينار . وذكر الطرطوشى فى سراج الملوك والقرطبي فى تاريخه أن طارقاً مولى موسى بن نصير دخل إلى الأندلس فى ألف وسبعمائة رجل وكان هناك « تدرس » نائباً عن « لذريق » فقاتلهم ثلاثة أيام ثم كتب إلى لذريق إن قوماً قد وصلوا إلينا ما أعلم من الأرض هم أم من السماء وقد قاتلناهم ولا طاقة لنا بهم فأدركنا بنفسك فأتاه لذريق فى تسعين ألف فارس فقاتلهم ثلاثة أيام ، واشتد

(١) بياض بالأصل .

بالمسلمين البلاء فقال لهم طارق إنه لا ملجأ لكم ، أين تذهبون وأنتم في وسط بلادهم والبحر من ورائكم محيط وإني فاعل بكم شيئاً إما النصر وإما الموت ، فقالوا ما هو قال اقصدوا طاغيتكم فإذا حملت فاحملوا بأجمعكم ففعلوا ذلك فقتل لذريق وجمع كثير من أصحابه وهزمهم الله وتبعهم المسلمون ثلاثة أيام يقتلونهم قتلاً ذريعاً ، ولم يقتل من المسلمين إلا نفر يسير ، وبعث برأس لذريق إلى سيدنا موسى بن نصير بإفريقية فبعث به موسى إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق ثم سار طارق إلى طليطلة ومغيث الرومى مولى الوليد إلى قرطبة ففتحوهما ووجدوا ذخائر وأموالا لا تحصى منها مائدة سليمان عليه السلام قومت بمائة ألف دينار لكثرة ما عليها من الجواهر. ومن هنا يظهر أن قول الشيخ سيدى موسى الزياتى افتتح المغرب صحابى وتابعيان : عقبة بن نافع وموسى ابن نصير والإمام إدريس ، لكن لم يستقر إسلام أهل المغرب إلا من إدريس ا هـ — فيه نظر فإن عقبة صحابى وكذا فى عده سيدنا ومولانا إدريس تابعياً فإنه من تابعى التابعين كما عند غيره وتقدم أن أباه كان من صغار التابعين وروى عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رحمه الله تعالى أنه كانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا واحداً وقرى متصلة عامرة فخربت . وقال الإمام العلامة التوزرى سمعت من يقول إنه كان بإفريقية من القديم مائة ألف حصن بين قصر ومدينة وإن ملكها كان إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس ودينار فجمع لـه مائة ألف فارس ومائة ألف دينار فلا ينقص من بلاده شيء . ثم قال ومن تأمل آثار المدن والقصور الخربة بإفريقية وتدانى بعضها من بعض رأى من ذلك ما يقضى منه العجب ويستدل منه على كثرة عمارتها فيما سلف .

وفى المعيار سئل القاضى عن العاقلة الذين يؤدون ، فأجاب هم

العصبة ومن يقرب منها الأقرب فالأقرب إلى أن قال وما ذكر يكون فى أهل الكورة الواحدة وإفريقية كورة واحدة من طرابلس إلى طنجة، وفى تكميل التقييد قال سحنون فى إفريقية : يضم عقل أهل إفريقيــة بعضهم إلى بعض من طرابلس إلى طنجة ، قال وفى بعض نسخ اللخمى طنجة مكان ( طنبة ) وفي المدونة ومن غاب عن البكر غيبة انقطاع كمن خرج إلى المغازى إلى مثل إفريقية والأندلس وطنجة ، قال عليه فى تكميل التقييد طنجة كانت قاعدة المغرب الأقصى فى زمن مالك وابن القاسم فقيل إنها طنجة المعروفة اليوم بهذا الاسم وقيل إنها مدينة « وليلى » التى تعرف اليوم بقصر فرعون عند جبل زرهون ا هـ . والجدب بالدال المهملة ضد الخصب بكسر الخاء المعجمة والمعنى أنه لما قــدم المغرب سيدنا إدريس رضى الله عنه استقام الدين فيه ببركته وأخصب أى قوى ظهوره فما زال يدعو أهله إلى الله تعالى حتى تمكن غايــة التمكن وثبت كل الثبوت وأمات طرق الابتداع والضلال . والحمد لله على ذلك .

الفصل الرابع

## في بناء مدينة فاس والسبب الحامل له على بنائها

وذلك أنه لما تمهد ملك مولانا إدريس وكثرت عليه الوفود وعظمت جنوده وقوى جيشه وضاقت بهم مدينة وليلى عزم على الانتقال عنها وأراد أن يبنى مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته فركب فى خاصته وخرج يتخير البقاع فى سنة تسعين ومائة فوصل إلى جبل زالخ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه فاختط مدينة بسنده مما يلى الجوف وشرع فى بنائها فبنى جزءاً من سورها فأتى سيل من أعلى الجبل فهدم ما كان بناه من السور المذكور وحمل ما كان حوله من خيام العرب وأفسد كثيراً من الزرع فلما رأى ذلك مولانا إدريس رفع يده من البناء وأقام إلى أن دخل شهر المحرم مفتتح إحدى وتسعين ومائة ثم خرج ينظر أيضاً فيها فوصل إلى وادى سبوا فأعجبه موضعه فعزم على البناء هناك ثم نظر إلى كثرة الماء الذى فيه فخاف على الناس منه فرجع إلى وليلى وبعث وزيره عمير بن مصعب الأزدى لينظر له موضعاً فخرج وسار فى جهات شتى يتخير الأرض والمياه حتى وصل إلى « فحص أسايس » فوجد فحصة الأرض واعتدالها وكثرة المياه فيها فأعجبه ذلك فنزل هنالك علـى عين غزيرة مطردة فى مروج مخضرة فتوضأ منها ومن معه وصلى صلاة الظهر حولها ثم دعا

الله أن يهون عليه مطلبه وأن يدله على موضع يرتضيه لعباده . ثم ركب وأمر قومه بأن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم فنسبت العين إليه وسميت « بعين عمير » إلى الآن فرأى عيوناً كثيرة تزيد على ستين عيناً ومياهها تطرد فى فسيح الأرض وحول العيون شجر من الطرفـا والعرعار ، وغير ذلك فشرب من الماء واستطابه ، وقال : هذا ماء عذب معتدل وهو أقل ضرراً وأكثر منفعة وحوله مزارع كثيرة ثم سار مع سيل الوادى حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فنظر الى ما بين الجبلين ، فإذا عيطة ملتفة الأشجار مطردة بالعيون والأنهار وفى بعض مواضع منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناتة يعرفون بزواغة وبنى يزغة فرجع عمير إلى إدريس فأخبره بجميع ذلك ، فأعجبه وسأل عن مالك الارض فقيل له قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير فقال مولانا إدريس : « هذا فأل حسن » فبعث إليهم واشترى منهم موضع المدينة بستة آلاف درهم ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك ، وشرع فى بناء المدينة وقيل غير هذا ، وسيأتى وجه تسميتها بفاس . قال فى الأنيس لما أراد الشروع فى بنائها رفع يديه وقال : اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها ، ثم أخذ المعول بيده فابتدأ يحفر الأساس فلم تزل منذ بنيت دار علم وفقه وسنة والجماعة بها قائمة قال : وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم فهى فى القديم دار فقه وعلم وحديث وعربية وفقهاؤها هم الذين يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب ولم يزل ذلك كذلك على ممر الزمان ببركة بانيها مولانا إدريس رضى الله عنه . وسكانها أحدّ أهل المغرب أذهاناً وأشدهم فطنة وأرجحهم عقلا وألينهم قلوباً وأكثرهم صدقة وأعزهم نفوساً وألطفهم شمائل وأقلهم خلافاً على الملوك وأكثرهم طاعة لولاتهم وحكامهم وكيف تقلبت الأحوال بهم يسمون على سائر بلاد

المغرب علماً وفقهاً وديناً .

وذكر ابن الأغلب فى تاريخه ان الإمام مولانا إدريس لما فرغ من بناء المدينة وحضرت الجمعة صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه في آخر خطبته فقال : « اللهم إنك تعلم ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما أبقت الدنيا ، اللهم وفق سكانها وقطانها إلى الخير وأعنهم واكفهم موئنة أعدائهم وأدرّ عليهم الأرزاق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق إنك على كل شيء قدير » ، فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات وظهرت بها البركات فبلغ وسق القمح في أيامهم درهمين ووسق الشعير درهماً والقطنية لا تباع ولا تشترى والكبش بدرهم ونصف والبقرة بأربعة دراهم والعسل خمسة وعشرون رطلاً بدرهم واحد والفاكهة لا تباع ولا تشترى لكثرتها ، دام ذلك بها خمسين سنة وتقدم أنه قال للناس : من أنشأ موضعاً وغرسه قبل تمام السور فهو له هبة ابتغاء وجه الله تعالى ، فبنى الناس الدور وغرسوا الثمار وكثرت العمارة والخطة فكان الرجل يختط موضع منزله وبستانه ثم يقطع منه الخشب فيبنى به ولا يحتاج إلى خشب غيره وغرس الناس جانب الوادى من أصله الذى يخرج منه « بفحص أسايس » إلى مصبه « بنهر سبوا » بالشجر والكرم والزيتون وضروب الثمار فعمرت الأرض بالغراسة والحراثة وأينعت الثمار وأطعمت الكروم والأشجار من سنتها ببركة مولانا إدريس وسلفه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ورحمته وبركاته ، وبنيته الصالحة وطيب المنزلة وعذوبة المياه واعتدال الهواء ظهرت البركات وتوالت الخيرات وزادت العمارة وقصدها الناس من جميع البلاد والجهات وأتاها من رغب فى جوار

السلالة الكريمة الطاهرة أهل بيت المصطفى صلى الله عليهم وسلم اه .
ومن فضائل هذه المدينة دخول ماء نهرها وعيونها لمنازلها ودورها فينتفع بذلك أهلها ثم يخرج بالفضلات والقاذورات فتبقى المدينة نقية طيبة الهواء والرائحة . قال فى الأنيس وماء نهر مدينة فاس أفضل انهر الأرض وأعذبها وأخفها يخرج من عيون من أعلاهـــا فى بسيط من الأرض على الكرافس والسعداء من منبعه حتى ينحدر حتى المدينة فى مروج خضراء لا تزال كذلك صيفاً وشتاء حتى يدخل البلد وينقسم فى داخلها على جداول كثيرة . ومن فضائل هذا النهر أنه يفتت الحصى ويذهب الصنان لمن اغتسل به ويلين البشرة ويسرع الهضم ويشرب على الريق فلا يضر وذلك لاجل جريانه على الكرافس والسعداء فهو فى نهاية الخفة والعذوبة ومن فضائله ما ذكره ابن حنون المطبب أنه ينبه شهوة الجماع إذا شرب على الريق ومن فضائله أنه تغسل به الثياب بغير صابون فيبيضها ويكسوها رونقاً ورائحة طيبة اه .والسعداء من جنس الديس يعلو من الأرض نحو الذراعين فى أعلاه سنبله وأصله مستطيل منعقد مشتبك بعضه ببعض يدب تحت الأرض أسود يميل إلى الحمرة طيب الرائحة طعمه كطعم عروق الزنجبيل ، وبين محل ويحل التجنيس الناقص وبين أمر ويمر التجنيس المضارع وقد أنشد الفقيه صالح الزاهد أبو الفضل ابن النحوى فى مدح مدينة فاس واوصافها ما نصه :

| | |
|---|---|
| يا فاس منك جميع الحسن مسترق | والساكنوك أهنيهم لقد رزقوا |
| هذا نسيمك أم راح لراحتنـــا | وماؤك السلسبيل الصافى أم ورق |
| أرض تخللها الأنهار داخلهـــا | حتى المجالس والأسواق والطرق |

قال فى الأنيس وكان الفقيه أبو الفضل ابن النحوى هذا من أهل العلم والدين والورع والفضل والصلاح ذكره صاحب الشفوف من

أكابر رجال أهل المغرب اه . وهو صاحب الحكاية المعروفة ، وذلك أنه لما أراد أن يسافر قال له أهله : ما تركت لنا فكتب لهم رقعة وقال إن رجلا يأتيكم فادفعوا له الرقعة فانه يقوم بما تحتاجون اليه إلى أن أقدم وكان الذى كتبه فى الرقعة : «إن الذى وجهت وجهى اليه هو الذى خلفته فى اهلى لم يخف عليه حالهم ساعة وفضله أوسع من فضلى » فلما كانت عشية النهار الذى سافر فيه أتاهم آت فقرع الباب وقال : هاتوا البطاقة فأخرجوها إليه وكان يأتيهم كل يوم بما يحتاجون اليه إلى أن قدم الشيخ رضى الله عنه فأخبروه فحمد الله وأخبرهم بما كتب، وكان رضى الله عنه من أهل الغيبة فى الصلاة فكان إذا كان فى غير الصلاة لا يستطيع أحد من أهله أن يتكلم كأن على رؤوسهم الطير فاذا دخل فى صلاته ارتفعت الأصوات وكثر اللغط وهو لا يشعر بذلك ، وأنشد الفقيه البارع الورع أبو عبدالله المغيسى فى وصف فاس متشوقاً اليها حين ولى القضاء بمدينة « آزمور » :

| | |
|---|---|
| يا فاس حيا الله ارضك من ثرى | وسقاك من صوب الغمام المسبل |
| يا جنة الدنيا التى أربت على | حمص لمنظرها البهى الأجمل |
| غرف على غرف ويجرى تحتها | ماء ألذ من الرحيق السلسل |
| وحدائق من سندس قد زخرفت | بجداول كالأيم أو كالفيصل |
| وبجامع القروى شرّف ذكره | أنسى بذكراه بهيج مؤمّلى |
| وبصحنه زمن المصيف محاسن | فوق العشى الغرب منه استقبل |
| واجلس إزاء الخصة الحسنا بها | واكرع بها عنى فديتك وانهل |

وأحسن ما وجهت به تسميتها بفاس أن الإمام إدريس لما عزم على بنائها ووقف على موضعها مر بها شيخ كبير راهب من رهبان النصارى قد زاد على مائة وخمسين سنة كان مترهباً فى صومعة قريبة من تلك الجهة فوقف على مولانا ادريس وسلم عليه ، ثم قال :

أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين، قال أريد أن أختط مدينة هنا يعبد الله تعالى بها ويتلى بها كتابه، وتقام بها حدوده، قال: أيها الأمير إن لك عندى بشرى قال وما هى ايها الراهب قال: إنه أخبرنى راهب كان قبلى فى هذا الدير له منذ توفى مائة سنة أنه وجد فى كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى «سافا» خربت منذ الف سنة وأنه يجددها ويحيى آثارها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوءة يسمى إدريس ويكون له شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائماً إلى يوم القيامة. فقال مولانا إدريس: الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بانيها إن شاء الله تعالى. فلما بناها قيل له كيف تسميها قال باسم المدينة التى كانت قبلها ساف ولكن أقلب اسمها الأول ونسميها فقلبه وسماها «فاساً» وكان تأسيس سيدنا ومولانا إدريس رضى الله عنه لمدينة فاس على ما ذكره المؤرخون سنة اثنتين وتسعين ومائة وأسس عدوة الأندلس منها وأدار بها السور وبعدها بسنة أسس عدوة القرويين وذلك فى غرة ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة ولما فرغ من بناء المدينة وانتقل إليها بمحلته واستوطنها واتخذها دار ملكه أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج إلى غزو نفيس وبلاد المصامدة ورجع إلى فاس فأقام بها إلى شهر المحرم من سنة تسع وتسعين ومائة فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر فى أحوالها وإصلاح سورها وجامعها وصنع بها منبراً كتب عليه هذا ما أمر به إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علىّ رضى الله عنهم فى شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة؛ فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين ثم رجع إلى مدينة فاس فلم يزل بها إلى أن توفى رحمة الله عليه ورضوانه فى سنة عشر ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ودفن بمسجده بإزاء الحائط

الشرقي منها ، هكذا فى بعض نسخ الأنيس وفى بعضها وهو ابن ست وثلاثين سنة وهو الصواب لما مر أنه ولد سنة سبع وسبعين ومائة فأعوام ملكه ستة وعشرون عاماً . أما قول البرنسي توفى إدريس بمدينة وليلى من بلد زرهون فى الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين وسنه يومئذ ثمانية وثلاثون عاماً ودفن إلى جانب قبر أبيه برابطة وليلى اه ، فهو غير صحيح أما أولا فلاتفاقهم على أنه ولد سنة سبع وسبعين فلا يصح أن يكون عمره ثمانية وثلاثين ، وأما ثانياً فلما ذكره العلامة الحافظ سيدى عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى من اتفاق أرباب البصائر والأذواق وإطباق العامة والخاصة على أنه توفى بفاس كما لهجت به الألسنة وطارت به الرفاق فى الآفاق وأذعنت به قلوب أهل الإيمان ولم يقع فيه اختلاف ولا شقاق فما يعرف لهم قط تنازع فى ذلك فمن قال بخلافه يحوز الوعيد بمقتضى قوله : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » وهى مما تمسك به الشافعى رضى الله عنه فى ثبوت الإجماع وصحته والتواريخ والأخبار متفقة على أن الخاصة والعامة يتبركون بزيارة ضريح مولانا إدريس بن إدريس بفاس وأبيه بزرهون ويتوسلون إلى الله عند ضريحيهما وما وقع نزاع بينهم قط ولا مغير لذلك عليهم ولا مكذب به وذلك من أمر الدين فاتفاق الأمة إجماع والأمة لا تجتمع على ضلالة . ونظير هذا القول الباطل قول السهيلى فى الروض الأنف إن إدريس بن عبد الله توفى بإفريقية فهو أيضاً خلاف الإجماع وخلاف القطع وهو باطل على كل حال ولا يعتد به على ظاهره لاحتمال أن يكون دسّ عليه بشهادة أن كتابه غير مرويّ ولا مقروء عليه بل ولا طالعه لفقده بصره قبل أن يؤلفه وما ذكره من قيده عنه فهو مطروح لا التفات إليه ولا يقام فيه بمخاصمة الجميع

ومنازعتهم واستخراج ما بأيديهم من المتحقق عندهم ، كيف وقد نقل أهل كل زمان عمن فيه أنه توفى بفاس وأبوه بزرهون ودفنا هنالك ، هذا مع قيام آثاره ومدينته الشهيرة شرقاً وغرباً لا ينكر نسبتها إليه أحد وتعدد الأحباس على ضريحه بتوالى السنين مكتوب اسمه فى رسومها منسوب إليه الضريح في كل زمان ، وظهور البركات الكثيرة والاستشفاع بضريحه وإجابة الدعاء عنده وظهور جسده المقدس هنالك وكذا جسد أبيه بزرهون كما يأتى . وما أحسن قول القائل :

منازل أهل الله آل رسولـــه ... فأحبب بهم أهلا وأحبب بها مغنى
مدينة إدريس بن إدريس التى ... بها قبره أناره قـــبره مبنى[1]

ووجد بخط الإمام القصار رحمه الله مما أنشده بعض الأدباء :

إدريس قام بفاس كالعروس له ... قلب إذا نامت العينان لم يــنم
أحل بارئه فى حرز حرمتـــه ... كالليث حل مع الأشبال فى أجم
يرد عنهم يد المؤذى بصولتـــه ... رد الغيور يد الجانى عن الحرم

قال العلامة ابن زكرى وقد ذكر بعض أهل العلم أن مما يستدفع به الأذى عن أهل بلد فاس بقاء أثر شجاعته ونصرته لدين الله وقهره للأعداء بها وهو سيفه الذى بأعلى منارة القرويين فقد تضمن وضعه هنالك إشارة جليلة إلى الدفع عن أهلها ورد من رامها بسوء ، وفى هذا المعنى قال الفقيه الإمام الربانى أبو عبد الله محمد بن سعيد الحياك رضى الله عنه :

شهرة المشرقى فوق المنار ... عزة للورى ودين النـــبى
سيف إدريس محمد للأعادى ... وانتصـــار الملـــوك بالمشرفى

---

(١) هذا البيت غير مفهوم .

وأما الحياك هذا فمن أشياخ ابن غازى الذين أخذ عنهم وأثنى عليهم الثناء الجميل وقصد بهذين البيتين رضى الله عنه رد قول مسعود بن أبى القاسم بن أبى طلاق :

قالوا بجامع فاس سيف إدريسا وكلهم قائل زوراً وتلبيسا
ما جعله غير طلسم لساكنها لكى ينال بها الأحزان والبوسا

وإنه لحقيق بالرد وخليق بالتزييف والإبطال نعم ما تضمنه كلامه من ترادف الأحزان والبؤس على ساكن فاس له أصل وأساس وهو كثرة التوسعات الدنيوية بها فى الأطعمة والأشربة واللباس والأبنية والمياه، وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها من البلدان ، وبقدر ذلك يكون الغم وترادف الأحزان كما قال سيدى ابن عطاء الله فى الحكم : « إذا قل ما تفرح به قلّ ما تحزن عليه » فإن مفهومه أنه بقدر ما يفرح به الإنسان يكون حزنه وبه قرره شراحه وهو معنى قول القائل :

فاس لعمرى هى الدنيا بأجمعها لو لم يك القلب فيها ضيقاً حرجا
من حل ساحتها لم ينج من كدر كأنما همها بمائها مزجا

وكما زيف ذلك القول الإمام الحياك زيفه الشيخ أبو زيد المكودى قال :

قد قيل سيف المنار بفاس (؟) هو طلسم ذلة وهوان
أخطأوا ليس ذاك إلا لعز بهرت منه سائر البلدان

وكذا ردّه أيضاً الشيخ الفقيد الأستاذ النحوى المقرى أبو المكارم منديل بن آجروم رحمه الله تعالى فى قوله :

شاموا بفاس سيف إدريسهم فوق منار لا لأمر مخوف
بل أشعروا بقول خير الورى جنتكم تحت ظلال السيوف

وكذا الشيخ الفقيه الإمام عبد الغفار البو خلفى بقوله :

ذكرت ولم أكن للذكر ناس عجائب سيف إدريس بفاس
فلم يك بالمنار سدى ولكـن ليدفع عن حماها كل بـاس

وكذا الشيخ المتفنن الفقيه النحوى أبو عبد الله محمد بن موسى بن إبراهيم الحاجرى بقوله :

يقولون زجراً إن فاساً قضى لها بذلتها سيف المنار المشيـد
لقد أخطأوا فى زجرهم ضل سعيهم هل العز إلا تحت ظل المهنـد

وما أحسن قول الفقيه أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالربيب :

سر فاس لأهل فاس بدا في وضع إدريس بالمنار حسامه
فهم الغـر للنـداء فأورى ناره معلما وشـال علامـه

يشير الى اظهار العلام والفنار اللذين أحدثهما أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان فارس المدينى ونحو قول ابن آجروم قول الفقيه أحمد ابن يحى بن عبد المنان :

أنكر السيف بالمنـار بفـاس قائل إن ذاك داعى اغتمـام
لا يرعك الحسام سل عليها جنة الخلد تحت ظل الحسام

وقال الشيخ الفقيه إدريس بن راشد الفهرى رحمه الله تعالى :

سل إدريس بالمنار حسامـا منبئاً ذاك عن شديد العقـاب
داعياً للصلاة إن لم تجيبوا فحقيق الجزاء ضرب الرقاب

ونحو هذا قول الفقيه أبى الفضل محمد بن باشر التسولى :

وليس ارتفاع فى المنار لكربة ولكنه كى يعلم الحق جاهله
أحض على الخمس التى فاز أهلها ومن حاد عن عرفانها أنا قاتله

وقال أيضاً رحمه الله ورضى عنه :

قل لمن أنكر الحسام بفـــاس  وادعى الغم قول ذى تجريـــح
سيف إدريس بالمنار شهير  شهرة الدين بالأذان الفصيح

وقال الأديب أبو عثمان سعيد السدراتى الشهير بشهبون رحمه الله تعالى :

لإدريس سيف أظهر الدين والهدى  بأفـــق منار للأذان تقيـــدا
فمن ظن أن الذل أورثنا به  فهل ذل إلا ظالم ضل واعتدى

ذكر هذه الأشعار فى كتاب فرائد الجمان الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر رضى الله عنه وزاد عليها ، لكن ما اقتصرنا عليه هو زبدة ما ذكره ، وسبب وضعه فى أعلى المنار أن الأمير أحمد بن أبى بكر الزناتى كان رجلا فاضلاً صالحاً من أهل الدين والورع اختصم إليه بعض حفدة الإمام مولانا إدريس فى السيف المذكور وطلب كل واحد منهم أن يحوز السيف لنفسه وطال نزاعهم فيه ، فقال لهم الأمير أحمد بن أبى بكر : هل لكم أن تبيعوه منى وتتركوا النزاع فيه ؟ قالوا له وما تصنع به أيها الأمير ؟ قال أجعله فى أعلى هذه الصومعة التى بنيت تبركاً به . فقالوا : أيها الأمير إن كنت تفعل هذه فخذه هبة لك بطيب نفوسنا . فوهبوه له ، فجعله فى أعلى المنار وكان ذلك سنة خمس وأربعين وثلثمائة .

# الدولة الثانية

## الغمارية

### وإليها أشار ابن خلدون فى العبر بقوله : الخبر عن دولة الأدارسة فى غمارة وتصاريف أحوالهم

كان عمر بن إدريس عند قاسم بن محمد بن إدريس من أعمال المغرب بين إخوته برأى جدته كنيزة أم إدريس اختص منها بتجيساس ونزغة وبلاد صنهاجة وغمارة واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة ، وما إلى ذلك من بلاد غمارة ، ثم غلب عليها عمر عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله ، كما ذكرنا فى أخبارهم ، ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فملكوه ، واختص منهم محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بقلعة حجر النسر الدانية وجعل سبتة معقلاً لهم وثغراً لعملهم وبقية الإمارة بفاس وأعمال المغرب فى ولد محمد بن إدريس ، ثم أدلوا منهم بولد عمر بن إدريس وكان أخوهم يحيى بن إدريس بن عمر وهو الذى بايع لعبد الله الشيعى على يد مصالة ابن حبوس قائده وعقد له على فاس ثم نكبه سنة تسع ، وخرج عليها سنة ثلاث وعشرين فى بنى القاسم الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس (ويلقب) الحجاج لطعنه فى المحاجم وكان مقداماً شجاعاً وثار أهل فاس بريحان وملكوا للحسن وزحفوا إليه موسى فقتله واستولى ابن أبى

العافية على فاس وأعمال المغرب وأجلى الأدارسة وأخذ منهم حصنهم حجر النسر ، وانحرف إلى جبال غمارة وبلاد الريف ، وكان لغمارة فى التمسك بدعوتهم أياد ومقامات واستحدثوا بتلك الناحية ملكاً فوزعوه قطعاً كان أعظمها لبنى محمد هؤلاء ولبنى عمر « بتكسان ونكور وبلاد الريف » ثم سما الناصر بن عبد الرحمن إلى ملك العدوة ومراجعة الشيعة، فنزل له بنو محمد عن سبتة سنة تسع وتناولها من بر الريف على يد الرضى ابن عاصم رئيس محكمة كان يقيم فيها دعوة الأدارسة ، فأفرجوا له عنها ودانوا بطاعته ولما غزا أبو القاسم ميسور إلى المغرب لمحاربة ابن أبى العافية نقض طاعتهم ودعا للمروانية ووجد بنو محمد السبيل إلى الانتقام منه بمظاهرة ميسور عليه ووالى على ذلك بنو عمر صاحب نكور، ولما اشتغل ابن أبى العافية نكسته ورجع إلى الصحراء سنة خمس وعشرين انصرف ميسور من المغرب نازل بنى محمد وبنى عمر وهلك بعد ذلك وأجاز الناصر بن محمد بن طماس سنة ثلاث وثلاثين لحربهم وكتب إلى ملوك مغراوة محمد بن إدريس بن عمر المعروف بابن شالة يدعوه إلى الطاعة ، فأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الأمان وأوفد ابنه محمد بن أبى العيش مؤكداً للطاعة فاحتفل لقدومه وأكد له العقد ونصل سائر الأدارسة من بنى محمد وسألوا مثل سؤالهم فعقد لجميع بنى محمد أيضاً وكان بنو إدريس يرجعون فى رئاستهم إلى بنى محمد هؤلاء منذ استبدوا بها وآخرهم الحسن بن محمد الملقب بالحجاج فى ثورته على ابن أبى العافية فقدموا على أنفسهم القاسم بن محمد الملقب بكنون بعد فرار موسى بن أبى العافية ، وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيماً لدعوة الشيعة إلى أن هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين ، وقام بأمرهم من بعده أبو

العيش أحمد بن القاسم كنون وكان فقيهاً عالماً بالأيام والأخبار شجاعاً ويعرف بأحمد الفاضل وكان فيه ميل للمروانية فدعا للناصر وخطب له على منبر عمله ونقض طاعة الشيعة وبايعه أهل المغرب كافة إلى سجلماسة ، ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد بن الحسن ووفد محمد بن أبى العيش ابن إدريس بن عمر بن شالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين فاتصل به وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرحه وهم عيسى ابن عمرو بن أبي العيش أحمد بن القاسم كنون على عمله « بتكاهن » فى غيبة محمد فملكها واحتوى على مال ابن شالة ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابر غمارة إلى عيسى المذكور ابن كنون ففظعوا به وأثخنوه جراحة وقتلوا أصحابه ببلاد غمارة .

وأجاز الناصر قواده إلى المغرب وكان أول من أجاز إلى بنى محمد هؤلاء سنة ثمان وثلاثين ، أحمد بن يعلى من طبقة القواد أجازه فى العساكر ودعاهم إلى هدم تطاون فامتنعوا ثم انقادوا وشطوا وأجابوا إلى هدمها ورجع عنهم فانتفضوا فسرح إليهم حميد بن بصلتين المكناسى فى العساكر سنة تسع وثلاثين وزحفوا إليه بوادى « راوا » فوقع بهم فأذعنوا بعدها وتغلب الناصر ثم تخطت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب فأذعن له أهله وأخذ بدعوته فيه أمراء زناتة فى مغراوة وبنى يعرب ومكناسة كما ذكرنا ، فضعف أمر بنى محمد واستأذنه أميرهم أبو العيش في الجهاد فأذن له . وأمر ببناء القصور فى كل مرحلة من الجزيرة إلى الثغر فكانت ثلاثين مرحلة فأجاز أبو العيش واستخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون وتلقاه الناصر « بالمرة » وأجرى له ألف دينار فى كل يوم وهلك شهيداً في مواقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين وكان أخذ معه قائده جوهر ولما قفل من المغرب راجع الحسن الطاعة للناصر إلى أن هلك سنة خمسين واستجد الحاكم عزمه فى سد ثغور المغرب وإحكام

دعوتهم وشمر لها عزائم أموالهم من ملوك زناتة فكان بينهم وبين زيرى وبلكين ما ذكرناه ، ثم أغزى معه بلكين بن زيرى المغرب سنة اثنتين وستين أولى غزواته فأثخن فى زناتة وأوغل فى ديار المغرب وقام الحسن ابن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية فلما انصرف بلكين أجاز الحاكم إلى العدوة مع وزيره محمد بن قاسم بن طلمس وخلف كثيراً من عسكره وأوليائه ودخل قبلهم إلى سبتة واستصرخوا الحاكم ، فبعث غالباً مولاه البعيد الصيت المعروف بالشهامة وأمر له بما يعينه على ذلك من الأموال والجنود وأمره باستنزال الأدارسة وإجازتهم إليه وقال له: « سر يا غالب مسير من لا أذن له فى الرجوع إلا حيّاً منصوراً أو ميتاً معزوزاً » واتصل خبره بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة ونزل غالب ببعض مصمودة فاتصلت الحرب بينهم أياماً ثم بثّ غالب المال فى رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود وفروا وأسلموه فانحجز بقلعة جبل النسر ونازل بها غالباً وأمر الحاكم بعرب الدولة ورجال الثغور وأجازهم مع وزيره صاحب الثغر الأعلى يحيى محمد بن إبراهيم الحسينى فمن معه من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث وستين ، فاجتمعوا مع غالب على القلعة واشتد الحصار على الحسن وطلب من غالب الأمان ، فعقده له واستلم الحصن من يده ثم عطف على من بقى من الأدارسة فى بلاد الريف فأعجزهم وسيرهم مسيرة أسوة واستنزل جميع الأدارسة من معاقلهم وسار إلى فاس فملكهـا واستعمل محمد بن على بن قشوس فى عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة الخزامى فى عدوة الأندلس وانصرف غالب إلى قرطبة ومعه الحسن ابن كنون وسائر ملوك الأدارسة وقد مهد المغرب وحاله ومهد الشيعة وذلك سنة أربع وستين وتلقاهم الحاكم وركب الناس للقائهم ، وكان

يوم دخولهم إلى قرطبة أجمل أيام الدولة وعفا عن الحسن بن كنون ووفى له بالعهد وأجزل له ولرجاله العطاء والخلع والجعلان وأوسع عليهم الجراية وأسنى لهم الأرزاق ورتب من حاشيتهم فى الديوان سبعمائة من أنجاد المغاربة وتجنى عليه بعد ثلاث سنين بسؤاله من الحسن قطعة عنبر عظيمة تحصل عليها من بعض سواحل عمله بالمغرب أيام ملكه فاتخذ منها أريكة يرتفقها ويتوسدها فسأله حملها اليه على أن يحكمه فى « رخاء » فأبى عليه مع سعاية بنى عمه فيه عند الخليفة وسوء خلق الحسن، فنكبه واستقصى ما لديه من قطعة العنبر وسواها واستقام المغرب للحاكم وتضافر أمراؤه على مراجعة بلكين وعقد لوزيره جعفر على المغرب واسترجع يحيى بن محمد بن هاشم وغرب الحسين بن كنون مع الأدارسة جميعاً إلى المشرق واستقلالاً لنفقاتهم وشرط عليهم ألا يعودوا أو قصدوا البحر من المدينة سنة خمس وستين ونزلوا فى جوار العزيز معه بالقاهرة خير نزل وبالغ فى الكرامة ووعد بالنصرة والمبرة . ثم بعث الحسن بن كنون إلى المغرب وكتب له إلى آل زيرى بن مناد بالقيروان بالمظاهرة ، فلحق بالمغرب ودعا لنفسه وبعث المنصور بن أبى عامر العساكر لمدافعته، فغلبوه وقبضوا عليه واستحضره إلى الأندلس فقتل فى طريقه سنة ثلثمائة وثلاثين كما ذكرناه فى أخبارهم وانقرض ملك الأدارسة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبنى حمود منهم ببلاد غمارة وسبتة كما نذكره .

# الدولة الثالثة

## السبتية

وإليها أشار ابن خلدون فى العبر بقوله الخبر عن دولة بنى حمود من الأدارسة ومواليهم بسبتة وطنجة وتصاريف أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم .

كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم عن العدوة إلى المشرق وسائر بلاد المغرب واستقامت غمارة على طاعة المروانية ، وأذعنوا لجند الأندلسيين ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم فهلك على يد المنصور بن عامر فانقرض أمرهم ، وافترق الأدارسة فى القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا إشارة النسب واستحالت صفتهم منه إلى البداوة ، ولحق بالأندلس فى جملة البرابرة من ولد عمر بن إدريس رجلان منهم وهما علىّ والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علىّ بن عبيد الله بن عمر بن إدريس فصار لهما ذكر فى الشجاعة والإقدام ، ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة الغمارية ونصب البرابرة سليمان بن الحكم ولقبوه بالمستعين، اختص ابنا حمود هذان فأحسنا الغناء فى ولايته حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربة الولايات عقد لعلىّ بن حمود هذا على طنجة وأعمال غمارة فنزلها وراجع عهده معهم فيها ودعا لنفسه وجاز إلى الأندلس وولى الخلافة بقرطبة كما ذكرنا فعقد على

عمله بطنجة لابنه يحيى ثم أجاز يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه علىّ منازعاً لعمه القاسم واستقل أخوه إدريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بل بالعدوة من مواطن غمارة ثم أجاز بعد ملك أخيه يحيى بمقاله فاستدعى رجال دولتهم وعقد لحسن بن أخيه يحيى على عملهم بسبتة وطنجة وأنفذ نجا الخادم معه ليكون تحت نظره واسترشاده ، ولما هلك إدريس واعتزم من بقيه على الاستبداد بمقاله أجاز نجا الخادم لحسن ابن يحيى من طنجة فملك مالقة ورتب أمره فى خلافته ورجع إلى سبتة ، عقد لحسن على عملهم فى مواطن غمارة حتّى إذا هلك حسن أجاز نجا إلى الأندلس يروم الاستبداد واستخلف على العمل من وثق به من الموالى الصقلية فلم يزل على نظرهم واحداً بعد آخر إلى أن استقل بسبتة وطنجة من موالى بنى حمود هؤلاء الحاجب سكون البرغواطي وكان عبداً للشيخ عواد من مواليهم اشتراه من سبي برغواطة فى بعض أيام جهله ثم صار إلى علىّ بن حمود فأخذت النجابة بضبعيه إلى أن استقل بأمرهم واعتقد كرسى عملهم بطنجة وسبتة وأطاعته قبائل غمارة واتصلت أيامه إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب ابن تاشفين سنة إحدى وسبعين ودعا الحاجب سكون إلى مظاهرته على مزواة بفلس ونجا إلى بلاد الرملة من آخر بسيط المغرب مما يلى بلاد غمارة ونازلهم يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن « علودان » من حصون غمارة من ورائه فانقاد المغرب لحربه ثم صرف وجهه إلى سكون فجهز إليه العساكر وعقد عليها للقائد صالح بن عمران من رجال المعونة فتباشرت الرعايا بمقدمهم وأثالوا عليهم وبلغ الخبر إلى الحاجب سكون ، فأقسم أن لا يسمع أحداً من رعيته هدير طبولهم ، ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله وقد كان عليه من قبله ابنه « منبأ الدولة المعز » وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة وانكشفت عساكر سكون وطحنته رحى المرابطين

وسالت نفس ضيائهم ودخلوا طنجة واستولوا عليها ولحق ضياء الدولة بسبتة، ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس وبعث ابن عباد صريخه إلى أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين مستنجزاً ، وعده فى جهاد الطاغية والذب عن المسلمين وكان أهل الأندلس كافة يستحثونه على الجهاد وبعث ابنه المعز سنة ست وسبعين فى عسكر المرابطين إلى سبتة ، فمر من المجاز فنازلها وأحاطت بها أساطيل ابن عباد واقتحموها عنوة وقبض على ضياء الدولة « وفير بن المعز » فطالبه بالمال بإنجائه فأبى فقتله لوقته وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علىّ بن حمود وكتب إلى أبيه بالفتح وانقرضت دولة بنى حمود وانمحى آثارهم وسلطانهم من بلاد غمارة وأقاموا فى طاعته سائر أيامهم ، ولما نجم المهدى بالمغرب واستفحل فى أمر الموحدين بعد مهلة تنقل خليفة عبد المؤمن فى بلادهم فى غزوته الكبرى لفتح المغرب سنة سبع وثلاثين وما قبلها كما قيل قبل استيلائه على مراكش كما نذكره فى أخبارهم واتبعوا أثره ونزلوا بسبتة فى عساكره وامتنعت عليهم وتولى كبر امتناعها قائدها عياض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد لدينه وإباءته وعلمه ونصحه ثم أصبحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين . ( بياض ) .

ولما فشل أمر بنى عبد المؤمن وذهب ريحه وكثر الثوار بالمقاصية ثار فيهم محمد بن محمد الكتامى سنة خمس وعشرين كان أبوه من قصر كتامة مقبضاً على الناس وكان ينتحل السيميا ولعله أخذه عن أبيه محمد هذا وكان يلقب أبا الطواجن فارتحل إلى باب سبتة ونزل على بنى سعيد وادعى صناعة الكيمياء فاتبعه الغوغاء ثم ادعى النبوة وشرع شرائع وأظهر أنواعاً من الشريعة فكثر تابعوه ، ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا إليه عهده وزحفت إليه عساكر سبتة ففر عنها وقتله بعض البرابرة غيلة ، ثم غلب بنو مرين على بسائط المغرب وأنصاره سنة أربعين وستمائة

واستولوا على كرسى الأمر بمراكش سنة ثمان وستين فامتنع قبائل غمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم وأقاموا بمنجاة من الطاعة وعلى شبح من الخلاف وامتنعت سبتة من ورائهم على ملوك بنى مرين بسبب امتناعهم وصار أمرها إلى الشورى واستبد بها الفقيه أبو القاسم القرمى من مشيختها كما سنذكر ذلك كله إلى أن وقع بين قبائل غمارة ورؤسائهم فتن وحروب ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بنى مرين فأتوها طواعية ودخل الآخرون فى طاعة ملوكهم طوعاً أو كرهاً فملك بنو مرين أمرهم واستعملوا عليهم وتخطوا إلى سبتة وراءهم فملكوا الفريقين سنة سبع وعشرين وسبعمائة على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يأتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة ويمرضون فيها عند التيابها بقتل وشغب فتحضر البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا وذلك لوعورة جبالهم ومنعتها ولإجارة من لحق بهم من الخوارج عن طاعة السلطان إلى هذا العهد وذلك لإشراف جبلهم على سائرها وسمو قلاعه إلى مجار السحب دونها وتوعر مسالكه بهبوب الرياح فيها وهذا الجبل مطل على سبتة من غربيها وصاحب أمره يوسف بن عمر ولهم فيه عزة قد اتخذوا به المصانع والغروس وفرض لهم السلطان بديوان سبتة العطاء وأقطعهم فى بسيط طنجة الضياع استئلافاً لهم وحسماً لخلافهم ولله الخلق والأمر بيده ملكوت السموات والأرض .

## الدولة الرابعة

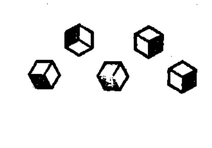
# الأَندلسية

فاعلم أن سبب ملك الأدارسة لها هو أنه قام قائم على هاشم آخر ملك من ملوك بنى أمية بها وادعى ذلك القائم أنه المهدى وصارت فتنة عظيمة ثم تولى سليمان بن الحكم بالأندلس على قبائل البربر الذين قطعوا الجزيرة مع موسى بن نصير فى بداية الأمر واستوطنوا البلاد وحاصروا هاشماً فى قرطبة ثم أرسل هاشم لصاحب سبتة وأحوازها وكان فيها وتملكها علىّ بن حمود من الأدارسة فقطع إليه من سبتة فى جموع من البربر وأغاثه ، وهو علىّ بن حمود بن ميمون بن علىّ بن عبد الله بن عامر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علىّ ، فقطع البحر لإغاثته وتبعه بعض أهل الجزيرة مع قوته ونزل على سليمان وهو محاصر لهاشم فى قرطبة فقبضه وقتله وقتل جموعه فادعى لنفسه علىّ بن حمود وولى البيعة بالأندلس ، وكان فظّاً غليظاً شجاعاً شديد البأس ، وكانت له أخبار بالجزيرة ووقائع واختصرنا من حديث أخبار وقته إلى أن انقضى أجله وسمته مملوكة من السقلب فمات فى ثمان وأربعمائة ، وولى الأمر بعده أخوه القاسم ثم نازعه علىّ بن يحيى بن حمود وتملك قرطبة ثم قام المرتضى مع العامرى لناحية شرق الأندلس وتحركوا ونزلوا على غرناطة وكثر الهرج فى أخبار يطول ذكرها ، واختل أمر المسلمين وكان آخر

الدولة المرتضى كان ممتنعاً فى قصر البنات فرجع إليه الأمر فى آخر عمره وهو شيخ ، فبايعه أهل قرطبة وجلس على سرير الملك وبعد ذلك خلعوه وذلك فى سنة عشرين وأربعمائة والبقاء لله الواحد القهار .

ولنذكر شيئاً من محاسن قرطبة إذ كانت عروس ملك الدولة الأموية والإدريسية . قال فى المغرب كان فى الزمن القديم فى عهد سليمان عليه وعلى نبينا محمد الصلاة والسلام نزل بها ليلة مع عساكره وكانت أرضها مروجاً تنبع بالماء ، فقال لهم سليمان قرطبوها بالحجارة وانزلوا فى هذه البقعة سيكون لها شأن عظيم فى آخر الزمان تخرج منها علوم كثيرة ، فعند ذلك سميت قرطبة والجبل الذى عليها يسمى بالتاج ويندفق منه ماء معين فسميت قرطبة عروسة الأندلس والتاج عليها وبقربها معدن الزئبق ولا يوجد فى معمور الأرض إلا هناك وينجلب منها إلى كل أرض ونذكر مسجدها الأكبر الذى بناه بنو أمية ولا استوفى بالبناء إلا بعد خمس وعشرين سنة وقد بنى فيه اثنا عشر خليفة من بنى أمية زاد فيه مجلساً المنتصر بالله الحاكم لذكر الله وآخر بناته محمد بن عامر ، وكان عدد بلاطاته ثمانية عشر وعدد سواريه ألف سارية وأربعمائة وعدد ثرياته ثمانين ثريّا ومصابيحه ألف مصباح ويصلى فى الجامع أربعون ألف مصل دون الصحن والصحن قدره ثلث الجامع وفيه منبر لم ير فى مشارق ومغاربها مثله وله تسعة أدراج ، وأنفق فيه من الأموال ثمانية عشر ألف دينار دون الحديد والعاج والصندل والبقام والرنج واليابنون وغير ذلك ومساميره مفضضة ومذهبة ، وعدد الفقهاء وأهل الكراسى والأشياخ والمؤذنين والمدرسين ما ينيف على المائة والعشرين رجلاً ومن أراد أن يطلع على حقيقة هذا المسجد وعلى ما يوقد فيه من الزيت وما له من الأحباس ومن الأرض للحرث وماذا يكفيه من الحصر وكيف هى الصومعة وعمودها وما له من الدرج من جهة أبواب القبلة وكيف هو

المجلس وما فيه من الذهب والفضة والعاج والزجاج والمدارق فليطلب حقيقة أمر هذا المسجد فى كتاب الجغرافية ، وترى لقرطبة أخباراً يبكى عليها كل مسلم .



# الدولة الخامسة

## المهدوية

وإليها أشار ابن خلدون فى العبر بقوله الخبر عن مبدأ أمر المهدى وما كان للموحدين القائمين بها على يدى بنى عبد المؤمن من السلطان والدولة بالعلاوتين وإفريقية وبداية ذلك وتصاريفه . لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال « وزن » عظيماً وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً ، وفى أخبار الفتح من حروبهم مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ، ما هو معروف مذكور إلى أن ظلتهم دولة «لمتونة»فكان أمرهم فيها مستفحلاً وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهماً ، حتى لقد اختطوا مدينة مراكش ، وقد نجم فى تلك الدولة على عهد علىّ بن يوسف امامهم العالم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدى أصله من « هرعة » من بطون المصامدة الذين عددناهم يسمى أبوه عبد الله وتومرت وكان يلقب في صغره أيضاً « امغار » وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه فى أهل البيت وأنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن عفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أخى إدريس الأكبر الواقع نسب الكثير منهم فى المصامدة وأهل السوس كذا ذكر ابن نحيل فى سليمان

هذا وأنه لحق بالمغرب ابن أخيه إدريس ، ونزل تلمسان وافترق ولده فى المغرب ، قال فمن ولده كل طالبي بالسوس وقيل بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب وإن رباحاً الذى فى عمود هذا النسب إنما هو ابن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن . وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع فى « هرعة » من قبائل المصامدة ورسخت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار فى عددهم ، وكان أهل بيته أهل نسك ورباح وشب محمد هذا محبّاً للعلم وكان يسمى « أسافو » ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها وارتحل فى طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بالأندلس ودخل قرطبة ، وهى إذ ذاك دار علم ، ثم أجاز إلى الإسكندرية وحج ودخل العراق ولقى جملة من العلماء يومئذ من فحول النظائر وأفاد علماً نافعاً وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهان يتحينونه من ظهور دولة يومئذ بالمغرب ، ولقى فيما زعموا أبا حامد الغزالى وفاوضه بذات صدره ، وبذلك فأزاده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار الأرض من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة المقيم للملة بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التى يكون بها الاعتزاز والمنعة ونشأ بها أمر الله فى درك هذه البقعة وظهور الدعوة وانطوى هذا الإمام راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين وكان قد لقى بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم فى الانتصار للعقائد الفلسفية والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة فى صدور أهل البدعة وذهب إلى رأيهم فى تأويل المتشابه من الآى والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم فى التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت فمنع أهل المغرب من ذلك وحملهم على القول

بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل « المرشدة » فى التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأى الإمامية من الشيعة ، وألف فى ذلك كتابه فى الإمامة الذى افتتحه بقوله « أعز ما يطلب » وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب وأحل بطرابلس أول بلاد المغرب فظهر بمذهبه ذلك مظهراً التكبر على علماء المغرب فى عدولهم عنه وأخذ نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاع حتى لقى بسبب ذلك أذيات في نفسه احتسبها من صالح عمله ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين فأغلظ له الإشاعة فى النكير وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات فى الطرق فوقعت بسببها « هبة » أنكرها السلطان والخاصة وائتمروا به فخرج منها خائفاً ولحق بملالة على فرسخ منها وبها يومئذ بنو ورتلكل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامهم إليه فأبوا وسخطوه وأقام بينهم يدرس العلم أياماً وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة وهى ولهذا العهد معروفة وهناك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علىّ حاجّاً مع عمه فأعجب بعمله وانتهى عزمه عن وجه ذلك واختص به وشمّر للأخذ عنه وارتحل المهدى إلى المغرب وهو فى جملة أصحابه فبلغ تلمسان وقد تسامع الناس بخبره ، فأحضر القاضى بها ابن صاحب الصلاة ووبخه على منتحله ذلك وخلافه لأهل قطره ، وظن أن من العدل نزعه عن ذلك ، فصم عن قبوله واستمر على طريقه إلى فاس ثم إلى مكناسة ونهى بها عن بعض المناكير ، فأوقع به الشر من الغوغاء فأوجعوه ضرباً ولحق بمراكش وأقام بها اخذاً فى شأنه ، ولقى علىّ بن يوسف بالمسجد الجامع فى صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له القول

ولقى ذات يوم الصورة أخت علىّ بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه ففاوض الفقهاء فى شأنه بما وصل إليه من شهرته وكانوا ملئوا منه حسداً وحفيظة لما كان ينتحل مذهب الأشعرية فى تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف على إقراره كما جاء ويرى أن الجمهور لقبوه تجسيماً ويذهب إلى تفكيرهم وهو أحد قولى الأشعرية فى التفكير بالرأى فأغروا الأمير به وأحضروه للمناظرة معهم فكان له الفتح والظهور عليهم وخرج من مجلسه وأنذر بالشر منهم فلحق من يومه بإغمات وغير المناكير على عادته وأغرى به أهلها علىّ بن يوسف وطيروا إليه بخبره ، فخرج منها هو وتلاميذه الذين كانوا فى صحبته ودعا إسماعيل بن أبكيك من أصحابه وخرج إلى صنهاجة من جبال المصامدة لحق أولا بسفيوه ثم بهشاشة ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد وأنود بن علىّ وهو أبو حفص ويعرف بيته في هشاشة ببيت فاصكات ويقول نسابتهم إن فاصكات هو جد وأنودبن المشانة بلسانهم ينتهى فلذلك كان يعرف عمر وسيأتى الكلام على تحقيق نسبه عند ذكر دولتهم ثم رحل المهدى عنهم إلى « أبكلين » من بلاد هرعة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة وبنى رباطاً للعبادة واجتمعت إليه الطلبة والقبائل فعلمهم « المرشدة » فى التوحيد باللسان البربرى وشاع أمره فى صحبه واستدرك العالم والفقيه بمجلس الأمير علىّ بن يوسف وهو مالك بن وهب فأغراه به وكان حذاء ينظر فى النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكياتى بالمغرب لأنه من المغرب ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين الطويين والسيارة يقتضى ذلك فى أحكامهم وكان الأمير يتوقعها فقال احتفظوا بالدولة من هذا الرجل فإنه صاحب القران والدرهم المربع فى كلام سفساق بمسجح

سوق يتناقل الناس نصه وهو : « اجعل على رجله كبلاً لئلا يسمعه طبلا » وأظنه صاحب الدرهم المربع فطلبه على بن يوسف ففقده وسرح الخيالة فى طلبه وأمرهم أن يسرعوا فى قتله وأن يقتلوا من تداخل فى أمره ففاتهم ودخل عامل السوس وهو أبو محمد اللمتونى فأنذر به إخوانه فنقلوه إلى معقل أشياعهم ودعوا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المسلمين دونه سنة خمس عشرة وخمسمائة فتقدم إليهم رجالهم من العشيرة وغيرهم وكان فيهم من هشاشة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن يكتب ويونس بن واندين وأبو يعمور ومن تململ أبو حفص عمر بن علىّ أصناك ومحمد بن سليمان وعمر بن تافراكين وعبد الله بن ملويان وأسرع رجال قبيلة هرعة فدخلوا فى أمره كلهم ثم دخل معهم كيدموية وكنفيسة ، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدى وكان لقبه قبلها الإمام وكان يسمى أصحابه الطلبة أهل دعوته الموحدين ، ولما تم له خمسون من أصحابه سمّاهم آية الخمسين فزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتونى بمكانهم من هرعة فاستغاثوا بإخوانهم من هشاشة فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت هزيمة الفتح ، وكان الإمام يعدهم بذلك فاستبصروا فى أمره وتسابق كافتهم إلى الدخول فى دعوته وترددت عساكر لمتونة إليه مرة بعد أخرى ففضوهم .

وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تململ فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولاد هزواجة وأوقع بهم مراراً وأجابوا بالطاعة ثم قاتل هسكورة ومعهم أبو لوقة اللمتونى فغلبهم وقفل فاتبعه بنو يزكيت فأوقع بهم الموحدون واثخنوا بهم قتلاً وأسراً ثم غزا بلد عجرامة وكان قد افتتحه وترك فيه الشيخ أبا محمد عطية من أصحابه فغدروا به وقتلوه فغزاهم واستباحهم ورجع إلى تململ وأقام بها إلى أن ميز الموحد من المنافق

وكانوا يسمونه لمتونة (الحشم) فاعتزم على غزوهم وجمع كافة أهل دعوته من المصامدة وزحف إليهم فلقوه بكبكب وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات . وهناك زحوف أخرى من لمتونة مع بكر على ابن يوسف وإبراهيم بن علىّ « بأغمات » فهزمهم الموحدون وقتل إبراهيم وتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة فى زهاء أربعين ألفاً كلهم رجال إلا أربعمائة فارس واستنفر علىّ بن يوسف الأحشاد وبرز إليهم للأربعين من نزولهم وخرج عليهم من باب « إبلاق » فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسبياً وفقد العشير من أصحابه واستمر القتال فى هيلانة وأبلى عبد المؤمن فى ذلك اليوم البلاء الحسن ، وكانت وفاة المهدى لأربعة أشهر بعدها وكان يسمى أصحابه بالموحدين تعريضاً للمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم وكان حصوراً لا يأتى النساء وكان يلبس العباءة المرقعة وله قدم فى التقشف والعبادة ولم يحفظ عنه فلتة فى البدعة إلا ما كان من وفاقه الأمامية من الشيعة فى القول بالإمام المعصوم اه . ما فى العبر .

وقال ابن خلكان فى وفيات الأعيان ما نصه هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المنعوت بالمهدى صاحب دعوة بنى عبد المؤمن بن على بالمغرب تقدم فى ترجمة عبد المؤمن طرف من خبره وكان ينسب إلى الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وهو من جبل السوس من أقصى بلاد المغرب ونشأ بها ، ثم رحل إلى المشرق فى شبيبته طالباً للعلم فانتهى إلى العراق واجتمع بأبى حامد الغزالى والكيا الهراسى والطرطوشى وغيرهم وحج وأقام بمكة مدة مديدة وحصل طرفاً صالحاً من علوم الشريعة والحديث النبوى وأصل الفقه والدين وكان ورعاً ناسكاً متقشفاً مخلوقاً كثير الأطراب بساماً فى وجوه الناس مقبلاً على العبادة لا يصحب من متاع الدنيا الا عصا وركوة وكان شجاعاً فصيحاً فى اللسان

العربى والمغربى شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع لا يقنع فى أمر الله بغير إظهاره وكان مطبوعاً على الاشتداد بذلك متحملاً للأذى من الناس بسببه وناله بمكة شيء من المكروه لأجل ذلك فخرج منها إلى مصر وبالغ فى الإنكار فزيد فى إيذائه وطردته الدولة وكان إذا خاف من البطش وإيقاع القتل به خلط فى كلامه فينسب إلى الجنون فخرج من مصر إلى الاسكندرية وركب البحر متوجهاً إلى بلاده وكان قد رأى فى منامه وهو فى بلاد الشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين فلما ركب فى السفينة شرع فى تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم بإقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية إحدى مدائن إفريقية وكان ملكها يومئذ الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وذلك سنة خمس وخمسمائة ، هكذا وجدته فى تاريخ القيروان ، ولما تقدم فى ترجمة الأمير تميم والد يحيى المذكور أن محمداً المذكور جاز فى أيام ولايته بإفريقية عند عوده من المشرق وكنت وجدته ايضاً والله أعلم بالصواب ولم يدخل المشرق مرتين حتى يحمل ذلك على دفعتين فإن كان عدوه فى سنة خمس كما ذكرناه فهو في ولاية الأمير يحيى لأن الأمير تميم توفى فى سنة إحدى وخمسمائة كما تقدم فى ترجمته وإنما نبهت عليه لئلا يتوهم الواقف عليه أنه فاتنى ذلك وهو متناقض فرأيته فى تاريخ الأكزرين الغبطى (؟) وزير حلب وهو مرتب على السنين ما صورته فى هذه السنة وكان فى آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة خرج محمد بن تومرت من مصر بعد الطلب بها وبغيرها ووصل إلى بجاية والله أعلم بالصواب ، ولما وصل إلى المهدية نزل فى مسجد « معلق » وهو على الطريق ونزل فى طارق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من الملاهى وأوانى الخمور إلا نزل إليها وكسرها فتسامع الناس به فى البلاد فجاءوا إليه وقرأوا عليه كتباً من أصول الدين وبلغ خبره

الأمير يحيى فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء فقال له أصلحك الله لرعيتك ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة ثم انتقل إلى « بجاية » فأقام بها مدة وهو على حاله بالإنكار فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها « سلا » فوجد بها عبد المؤمن بن عليّ القيسى المقدم ذكره ، ورأيت فى كتاب المغرب فى سيرة ملوك المغرب أن محمد بن تومرت كان قد أطلع على كتاب علوم تسمى الجفر وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله يكون مقامه ومدينته بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ن م ل ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و ن ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة فأوقع الله فى نفسه أنه القائم بأول الأمر وأن أوانه قد أزف فما كان محمد يمر بموضع إلا سأل عنه ولا رأى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته وكانت حلية عبد المؤمن معه فبينما هو فى الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده على الصفة التى معه فقال له محمد بن تومرت وقد تجاوزه فما اسمك ؟ فقال : عبد المؤمن . فرجع إليه ، وقال الله أكبر أنت بغيتى فنظر فى حليته فوافقت ما عنده فقال له من أين أنت ؟ فقال له من « كومية » فقال أين مقصودك ؟ قال الشرق فقال ما تبغى ؟ قال أطلب علماً وشرفاً قال وجدت علماً وشرفاً وذكراً اصحبنى تنله فوافقه على ذلك فألقى إليه بجملة أمره وأودعه سره ، وكان محمد بن تومرت قد صحب رجلاً يسمى عبد الله الونشريشى ففاوضه فيما عزم عليه من القيام فوافقه على ذلك أتم موافقة وكان الونشريشى ممن تهذب وقرأ على الفقهاء وكان جميلاً فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب فتحدثا يوماً فى كيفية الوصول إلى الأمر المطلوب فقال محمد بن تومرت

لعبد الله أن تسر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر العجز واللكن والحصر والبعد عن الفضائل مما تشتهر به عند الناس لتتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فتصدق بما تقوله ، ففعل عبد الله ذلك ثم إن محمداً تخلص من أهل المغرب أجلاداً فى القوى الثمانية أغماراً وكان أميل إلى الأغمار من أولى الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة سوى عبد الله ثم إنه دخل إلى أقصى المغرب واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك وتوجهوا إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علىّ بن يوسف بن تاشفين وقد سبق ذكر والده فى ترجمة والد المعتمد بن عباد وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهب الأندلسى فشرع ابن تومرت فى الإنكار على جرى عادته حتى أنكر على أبيه الملك وله فى ذلك قصة يطول شرحها فبلغ خبره الملك وأنه يحدث فى تغيير الدولة فتحدث مالك بن وهب وقال نخاف من باب يعسر علينا سده والرأى أن نحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء الأدب ، فأجاب الملك إلى ذلك وكان ابن تومرت وأصحابه مقيمين بمسجد خراب خارج البلد فطلبهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده سلوا هذا الرجل ما يبتغى منا ، فانتدب إليه قاضى المدينة واسمه محمد بن أسود ، فقال ما هذا الذى يذكر عنك من الأقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله على هواه . فقال له ابن تومرت أما ما نقل عنى فقد قلته ولى من ورائه أقوال وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم فإن كان يدعى هذه الصفة فإنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به مع علمكم أن الحجة عليه متوجهة ، فهل بلغك يا قاضى أن الخمر تباع جهاراً وتمشى الخنازير بين المسلمين وتؤخذ

أموال اليتامى وعدّد من ذلك شيئاً كثيراً ، فلما سمع الملك ذلك ذرفت عيناه وأطرق حياء ففهم الحاضرون من مجرى كلامه أنه طامع فى المملكة ولما رأوا سكوت الملك ، وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم فقال مالك بن وهب وكان كثير الاجتراء على الملك إن عندى لنصيحة إن فعلتها حمدت عاقبتها فقال الملك وما هى ؟ قال إنى خائف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليه كل يوم ديناراً لتكفى شره وإن لم تفعل لينفقن عليك خزائنك ثم لا ينفعك ذلك فوافقه الملك على ذلك ، فقال له وزيره يقبح عليك أن تبكى من موعظة هذا الرجل ثم تسىء إليه فى مجلس واحد وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء ، وحكى صاحب المغرب فى أخبار أهل المغرب أنه لما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه ، فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك فقال إنى لا يفارق وجهى الباطل حتى أغيره . اه كلامه .

فلما خرج ابن تومرت وأصحابه من عند الملك قال لهم لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهب فما نأمن أن يعاود الملك فى أمرنا فينا لنأمنه مكروه ، وإن لنا بمدينة « أغمات » أخاً فى الله فنقصد المرور به فلا نعدم منه رأياً ودعا صالحاً ، واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصامدة فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره ابن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك ، فقال عبد الحق هذا الموضع لا يحميكم وإن أحسن المواضع المجاورة لهذا البلد « تينمل » وبيننا وبينها مسافة يوم فى هذا الجبل فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكر ، فلما سمع ابن تومرت هذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذى

رآه فى كتاب الجفر فقصده مع أصحابه ، ولما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم من طلاب العلم فقاموا إليهم وأكرموهم وتلقوهم بالترحاب وأنزلوهم فى أكرم منازلهم ، وسأل الملك عنهم بعد خروجهم فقيل له إنهم سافروا ، فسره ذلك وقال تخلصنا من الإثم بحبسهم ، ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول ابن تومرت إليهم وكان قد سرى فيهم ذلك سريان البرق ، فجاءوا من كل فج عميق ليتبركوا بزيارته وكان كل من استدناه منهم عرض عليه ما فى نفسه من الخروج على الملك فإن أجابه أضافه إلى خواصه وإن خالفه أعرض عنه ، وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة وكان ذوو الحكم والعقل من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك فإنه لا يتم له مع ذلك حال ، وطالت المدة وخاف ابن تومرت من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل ، وخاف أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليه والتخلى عنه ، فشرع فى إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه ، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً وألوان آبائهم السمرة والكحل فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه فألزمهم بالإجابة فقالوا نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج فى كل سنة يصعد مماليكه إلينا ينزلون بيوتنا ويخرجوننا عنها ويختلون بمن فيها من النساء فتأتى الأولاد على هذه الصفة وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا ، فقال ابن تومرت والله إن الموت خير من هذه الحياة وكيف رضيتم وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالحربة ، فقالوا بالرغم لا بالرضا ، فقال لو رأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون ، قالوا كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت ، قالوا ومن هو ؟ قال ضيفكم يعنى نفسه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه ثم قال لهم استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح فإذا جاءوكم فأجروهم على عادتهم وخلوا بينهم

وبين النساء وميلوا عليهم بالخمور فإذا سكروا فأتونى بهم ، فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به ابن تومرت وكان ليلاً فأعلموه فأمر بقتلهم بأسرهم فلم ينهض من الليل سوى ساعة حتّى أتوا على آخرهم فلم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له فسمع التكبير عليهم والوقوع بهم فهرب من غير الطريق حتّى خلص من الجبل ولحق بمراكش وأخبر الملك بما جرى فندم على فوات ابن تومرت من يده وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهب فيما أشار به ، فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادى تينمل فإنه ضيق المسلك ، وعلم ابن تومرت أن لا بد من عسكر يصل إليهم فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادى ومراصده واستنجد لهم بعض المجاورين ، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر وكان ذلك من أول النهار إلى آخره وحال بينهم الليل ، فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم فعلم أن لا طاقة لهم بأهل الجبل . وعند ذلك استدعى الونشريشى وقال هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لتستميل قلوب من لم يدخل تحت الطاعة ، ثم اتفقا على أنه يصلى الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة تلك المدة إنى رأيت البارحة فى منامى أنه قد نزل ملكان من السماء وشقّا فؤادى وغسلاه وحشياه علماً وحكمة وقرآناً فلما أصبح فعل ذلك وهو فصل يطول شرحه وانقاد له صعب القيادة وعجبوا من حاله وحفظه القرآن فى النوم ، فقال له ابن تومرت عجل لنا البشرى فى أنفسنا وعرفنا أسعداء أم أشقياء ، فقال له أما أنت فإنك المهدى القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ، ثم قال أعرض على أصحابك حتى أميز لهم أهل الجنة من أهل النار ، وعمل فى ذلك حيلة قتل بها من خالف ابن تومرت وأبقى من أطاعه وشرح ذلك يطول ، وكان غرضه ألا يبقى

فى الجبل مخالف لابن تومرت ، فلما قتل من قتل علم ابن تومرت أن فى الباقين من له أهل وأقارب قتلوا فرأى أن يطيب قلوبهم فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم واغتنام أموالهم ، فسرهم ذلك وسلاهم على أهلهم ، وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة طويل ولسنا بصدد ذلك وخلاصة الأمر أن ابن تومرت لم يزل حتى جهز جيشاً عدد رجاله ما بين عشرة آلاف فارس وراجل وفيهم عبد المؤمن والونشريشي وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهراً وكسروا كسرة شنيعة ، وهرب من سلم من القتل وكان فيهم سالماً عبد المؤمن وقتل الونشريشي ، وبلغ ابن تومرت الخبر وهو بالجبل وحضرته الوفاة قبل عودة أصحابه إليه ، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين أن النصر لهم وأن العاقبة حميدة فلا يضجروا وليعاودوا القتال وأن الله تعالى سيفتح على أيديهم والحرب سجال وأنكم ستقوون وتعلون وتكثرون وأنتم فى مبدأ أمركم وفى آخره، ومثل هذه الوصايا وأشباهها، وهي قصة طويلة. ثم انه توفى الى رحمة الله تعالى فى سنة اربع وعشرين وخمسمائة ودفن فى الجبل وقبره مشهور يزار ، وكانت ولادته يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأول ظهوره ودعائه إلى هذا الأمر فى سنة أربع عشرة وخمسمائة قال صاحب كتاب المغرب فى أخبار أهل المغرب فى حقه :

آثاره تنبيك عــن أخباره حتى كأنــك بالعيــان تراه

له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا أغفل المرابطون حله وربطه حتى دبّ دبيب الفلق فى الغسق وترك فى الدنيا دوياً وأنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لما يعتريه فيها غير مسلم وكان قوته من غزل أخت له كل يوم رغيفاً بقليل سمن أو زيت ولم يشغل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ورأى أصحابه يوماً قد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه فأمر بذلك جميعه وأحرقه

وقال : من كان يبتغى الدنيا فما له عندى إلا ما رأى ومن تبغى على الآخرة فجزاؤه على الله تعالى ، وكان على خمول زيه وبسطة وجهه ، مهيباً منيع الحجاب إلاعند مظلمة وله رجل مختص بخدمته والاذن عليه وكان له شعر فمن ذلك قوله :

أخذت بأعضادهم إذ نأوا ... وخلفه القوم إذ ودعوا

فكم أنت تنهى ولا تنتهى ... وتسمع وعظاً ولا تسمع

فيا حجر الشحذ حتى متى ... تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيراً ما ينشد :

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضاً بقول أبى الطيب المتنبى :

ومن عرف الأيام معرفتى بها ... وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وبقوله :

إذا غامرت فى شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير ... كطعم الموت فى أمر عظيم

وبقوله :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

ولم يفتح شيئاً من البلاد وإنما قدر القواعد ومهدها ورتبها ووحدها وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن كما تقدم ذكره فى ترجمته . والهرغى بفتح الهاء والراء وبعدها غين معجمة هذه النسبة إلى (هرغة) وهى قبيلة كبيرة من المصامدة فى جبل السوس فى أقصى المغرب تنسب

إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما يقال إنها نزلت فى ذلك المكان عندما فتح المسلمون البلاد على يد موسى بن نصير الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، وتومرت بضم التاء المثناة من فوق وسكون الواو وفتح الميم وسكون الراء وبعدها تاء مثناة من فوق وهى اسم بربرى ، والونشريشى بفتح الواو وسكون النون وفتح الشين المعجمة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحت وبعدها شين معجمة هذه النسبة إلى ونشريش وهى بلدة بإفريقية من أعمال بجاية اه ما ذكره ابن خلكان ثم اعلم أنه لما كان عبد المؤمن بن على هو عضد دولة المهدى وقيم أمره وولى عهده فى حياته وبعد موته ناسب أن نـــذكر ترجمته بأثره وبيان ما انتهى إليه أمره مما كان فى نفس أستاذه مما عمده عليه فأقول هو أبو محمد عبد المؤمن بن على القيسى القومى الذى قام بأمر محمد بن تومرت المعروف بالمهدى كان والده وسطاً فى قومه وكان صانعاً فى عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها وكان عاقلا وقوراً ، ويحكى أن عبد المؤمن فى صباه كان نائماً وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه دوياً من السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ فرأته أمه على تلك الحال فصاحت خوفاً على ولدها فسكتها أبوه فقالت أخاف عليه ، فقال لا بأس عليه بل إنى متعجب بما يدل عليه ثم غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينظر ما يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبى وما به من ألم فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثراً ولم يشك إليها ألماً وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى أبوه إليه فأخبره بما رآه بالنحل مع ولده فقال الزاجر يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما اشتهر ، ورأيت فى بعض تواريخ أهل المغرب أن ابن

تومرت كان قد ظفر بكتاب يقال له الجفر وفيه ما يكون على يده وقصة عبد المؤمن وحليته واسمه وأن ابن تومرت أقام مدة يطلبه حتى وجده وصحبه وهو إذ ذاك غلام وكان يكرمه ويقدمه على أصحابه وأفضى إليه بسره وانتهى به إلى مراكش وصاحبها يومئذ أبو الحسن ابن على بن يوسف بن تاشفين ملك الملثمين وجرى له معه فصول يطول ذكرها وأخرجه منها فتوجه إلى الجبال وحشد أشتات المصامدة ، وبالجملة فإنه لم يملك شيئاً من البلاد بل عبد المؤمن ملك بعد وفاته بالجيوش التي جهزها ابن تومرت ، والترتيب الذى رتبه وكان أبداً يشعر فيه التجلة وينشد إذا أبصره :

تكاملت فيض أوصاف خصصت بها     فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة     والنفس واسعة والوجه منبسط

وكان يقول لأصحابه صاحبكم هذا غلاب الدول ولم يصح عنه أنه استخلفه بل راعى أصحابه فى تقديمه ما أشار به فتم له الأمر وكمل ، وأول ما أخذ من البلاد وهران ثم تلمسان ثم فاس ثم سلا ثم سبتة ثم انتقل بعد ذلك إلى مراكش وحاصرها أحد عشر شهراً ثم ملكها وكان أخذه لها فى أوائل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة واستوثق له الأمر ، فامتد ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثير من بلاد الأندلس ويسمى أمير المؤمنين وقصدته الشعراء وامتدحته بأحسن المدائح وذكر العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمداً أبى العباس السمانى لما أنشده :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل     مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار إليه بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بألف دينار ولما تمهدت له القواعد وانتهت أيامه خرج من المراكش إلى مدينة سلا فأصابه بها مرض

شديد وتوفى فى العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وكانت مدة ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهراً وكان عند موته شيخاً نقى البياض،ونقلنا من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شيخاً معتدل القامة عظيم الهامة أشهل العينين كث اللحية شثن الكعبين طويل العقدة واضح بياض الأسنان فى فخذه الأيمن خال رحمه الله تعالى . والكومى بضم الكاف وسكون الواو بعدها ميم هذه النسبة إلى كومة وهى قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان ومولده بقرية هناك يقال لها باجة .

وقد علم أن مشاهير ملوكهم ثلاثة كل منهم اسمه عبد القوى اثنان شريفان أحدهما حسينى موسوى والثانى حسينى إدريسى زياني والثالث راشدى توجانى ، فأما الحسينى الموسوى فهو عبد القوى بن عبد الرحمن ابن إدريس **بن** موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم رضى الله عنه ، المتوفى فى حدود الثلثمائة أو ما فى حكمها ، وأما الحسينى الإدريسى الزيانى فهو عبد القوى بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان ، القصبى التالوتى إلخ المتوفى فى حدود التسعمائة أو ما يقرب منها ، وأما التوجانى المتوفى فى حدود سبعة وأربعين وستمائة فلنفرد كل واحد من الثلاثة بفصل مخصوص مقدماً الشريفين ومؤخراً الراشدى التوجانى لكونه لم يكن له ملك حقيقى على تلك المدينة المذكورة وإنما كانت ولايته محاربة كما سيأتى فى فصله .

## الفصل الأول

# فى ذكرى الشريف عبد القوى الحسينى الموسوى

فاعلم أن الشريف عبد القوى هذا وهذه المدينة كانت لأسلافه قبله وبها قبورهم وآثارهم فإنه كان أبوه الشريف عبد الرحمن بها ملكاً وبعد وفاته ولى بها والده المذكور وأقام مدة مديدة وسنين عديدة وكانت سيرته حميدة كسيرة والده وجده قبله وكان فقيهاً متبحراً في جميع العلوم فارساً شديد البأس لا يقاومه أحد فى الحروب مع شدة فيض كرمه وحسن شيمته سريع الغضب قريب الرضا ، فإنه لما مات والده الشريف عبد الرحمن المذكور خلف أربعة أولاد أحمد وعبد القوى ومحمد الشراط وزيان . فأما أحمد فأولاده بمكة،وأما محمد الشراط فأقام فى مدينة «تاهرت» وأما زيان فأقام في مدينة «تيارت» وأما الشريف عبد القوى فأقام في الملك بعد موت أبيه بقطر «تاقدمت» كما مر ، ومن هؤلاء الأربعة تناسل الشرف الحسينى فى تلك النواحى من بعض نواحى الصحراء والسواحل والريف وتلمسان وتونس وغيرها، فإن مولاى عبد القوى لما مات ترك سبعة أو ثمانية أولاد محمد الكبير وعلى وأحمد وعبد السلام وعبد الرازق وزيان ومحمد الثانى وعبد القوى الصغير وهم صرحة واحدة، ثم إن أولاد مولاى عبد القوى المذكورين تفرقوا . فأما السيد محمد الكبير فأقام فى الملك بعد موت أبيه ومنه انقطع ملك بنى مولاى عبد الرحمن بن إدريس «بتاقدمت» وهو ولى سنة ٦٩٨ وتوفى سنة

٧٢١ وأما على فقد انتقل بإزاء شلق وأما أحمد وزيان فقد انتقلا بإزاء تونس وأما محمد الثانى وعبد السلام وعبد الرازق فقد انتقلوا إلى مدينة فاس فشاع خبرهم بها حتى سمع بهم أميرها موسى بن أبى العافية البربرى فبعث إليهم قائداً من قواده ، فقبض محمداً الثانى وقتله بالغدر والخديعة وقد خلف ولداً ابن عشرين يوماً فخرجت به جارية له فى كمها اسمها «حمامة» فقال لها الخادم ما عندك أيتها الجارية ؟ فقالت ما عندى شيء إلا خبزة برقوق نحيي بها النفس التى حرم الله وفرت به إلى «بطيوة» وأقامت به بإزاء جبل الحديد، وأما أولاد عبد الرازق وعبد السلام ومحمد الثانى أولاد مولاى عبد القوى المذكور فهم أهل جبل الحديد وأهل الريف ويقال لجميعهم «أولاد حمامة» والمذكور هاهنا بعض عقب إسماعيل بن موسى الكاظم ، قال النسابة السيد بن عنبة ولد إسماعيل بن موسى الكاظم إنما هو من ولده موسى وفيه نظر كما ستراه بعد .

قال فمنهم اولاد جعفر بن موسى الكليميون وهم بمصر ومنهم بنو السماء وبنو أبى العساف وبنو مقيم الدولة وبنو الوراق وهم بمصر والشام الآن ، وأولاد موسى الكاظم فرق مديدة فى أماكن عديدة فمنهم فرقة فى مكة ، ومنهم فرقة فى تلمسان، ومنهم فرقة فى نواحى وادى شلق ، ومنهم فى فاس ، ومنهم فرقة فى تونس ، ومنهم فرقة فى التركمانى ومنهم فرقة فى العراق وهم صرحة واحدة ، ومنهم غير ذلك فأما أهل مكة فجدهم اسمه على بن احمد بن عبد الرحمن ابن إدريس بن موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل تلمسان فرقة يقال لهم أولاد الطاهر السقلى صاحب تلمسان وانتقلت ذريته إلى فاس فهم المعروفون

بالسقليين ، ومنهم فرقة فى قبائل بنى مطهر فجدهم جميعاً الشريف طاهر السقلى بن على الفقيه بن يحيي بن على بن الحسن بن محمد قاضى الجماعة ابن إسماعيل ابن الطاهر بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما أهل نواحي وادى شلق فمنهم أولا السيد محمد بن عبد القوى المتولى الملك بعد أبيه ومنهم أولاد سيدى على بن يحيي الولى المشهور والنور المأثور وقد خلف اثنى عشر ولداً سيدى خليفة والأزرق وعبدالعزيز ومحمدوأحمد ويحيي وعبد الرحمن وأبو القاسم وعيسى وعبدالله وعمروعمران بن الجارية وهم صرحةواحد فجدهم اسمه على بن يحيي بن راشد بن فرقان بن حساين بن سليمان بن أبى بكر بن موءمن بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن موسى إسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه فيكون السيد على المذكور من أهل المائة السابعة على قياس ما سبق وقسم عده الجدود على ثلاثة ، فأما سيدى عمران وسيدى خليفة فانتقلا إلى جبل العمود ، وخلف سيدى خليفة أربعة أولاد سيدى عبد العزيز وسيدى أحمد وسيدى علياً وخلف سيدى أحمد بن خليفة بن على بن يحيي إلخ . وخلف سيدى هلال عشرة أولاد سيدى محمد وسيدى أحمد وسيدى إدريس وسيدى عالم وسيدى أحمد الصغير وسيدي على ابو حربة وسيدى هلال بن هلال وسيدى موسى وسيدى عبد الله وهم أهل مساكن بإزاء القيروان بعمالة إفريقية فجدهم اسمه محمد بن هلال بن محمد بن خليفة بن على بن يحيي بن ابن راشد بن فرقان بن حساين بن سليمان بن أبى بكر بن موسى بن

محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن سليمان ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدى يحيى والد سيدى على المذكور هو ابن سيدى راشد صاحب «جبل بنى وليد» فتقطب اثنتى عشرة سنة وهو صاحب درجة رفيعة وكان يقرأ فى مصر ويصلى الظهر فى مكة ويروح لبنى وليد، ثم توفى رحمة الله عليه وخلف أربعة أولاد وبنتاً: سيدى يحيى وسيدى يعقوب وسيدى عبد الجبار وسيدى على وسيدتى فاطمة. فأما سيدى يحيى فانتقل بإزاء وادى شلق وهناك تفرع أولاده المذكورون، وأما سيدى يعقوب فبإزاء جبل «نزارة» وأما سيدتى فاطمة فتزوجت سيدى محمد الفقيه فى بنى وليد فجدهم جميعاً اسمه راشد بن فرقان بن حساين بن سليمان بن أبى بكر بن موسى بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن موسى بن عبد الله ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما عبد الله الملقب بابن سفانة المستقر فى رأس العين عند أولاد داود الحميرى ثم الحسنى فى قبائل بنى مطهر فهو من ذرية سيدى على بن يحيى بن راشد ويلحق بهم بعضهم ممن يجتمع معهم فى محمد بن عبد القوى فمنهم أولاد سيدى موسى بن أحمد بن البريشى أصله فى «تاقدمت» المعروف بقبائل بنى عامر فاسمه محمد بن على بن محمد بن على بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن أبى القاسم بن على بن محمد بن أحمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن سليمان بن موسى ابن عبد الله بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم،

ومنهم أولاد سيدى محمد بن هلال بن سيدى محمد الملكى خلف ستة أولاد أولهم سيدى هــلال بن محمد بن هــلال وسيدى على بن محمد ابن هلال وسيدى هلال بن محمد بن هلال وسيدى على بن محمد بن هلال وأما سيدى أحمد بن هلال فانتقل (بإزاء فرجان) من ناحية المشرق وأما سيدى هلال بن محمد بن هلال فانتقل إلى الصحراء ثم انتقل إلى المغرب بإزاء أنجاد فى قبائل شجيع وأمــا سيدى بن هــلال فانتقل إلى المغرب الأقصى وأما سيدى محمد بن هلال وسيدى عبد الله ابن هلال وسيدى على بن هلال فهم أهل مدينة القيروان فجدهم اسمه محمد بن هلال بن إدريس بن غالب بن محمد المكى بن إسماعيل بن محمد بن أبي القاسم بن على بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه شجرة أصلهم : عــلى بن يحيي بن راشد بن فرقان بن حساين بن سليمان بن أبي بكر بن موسى ابن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط ابن على بن أبي طالب رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

## الفصل الثانى

فى ذكر الشريف عبد القوى الحسينى الإدريسى الزيانى القصبى التالوتى أحد ملوك إقليم مدينة «تاقدمت» قـاعدة المغرب الأوسط المذكورة قبل وهو آخر ملوكها وهذه البلدة كان لها شأن عظيم وذكر جسيم فى السابق لما اشتملت عليه من المحاسن فى إقليميه وما بها من الرياض والقصور والمساكن وقد ذكرها المؤرخون أخباراً طويلة وحكايات جزيلة يطول ذكرها وما اشتمل عليه صقعها وقد استوفى غالب مالها قديماً وحديثاً بحسب وقته الإمام الهمام المازونى صاحب الدرر المكنونة في كتاب له فى ذلك، والشريف الزيانى المذكور كـان لأسلافه وأجداده فى محله الآتى ذكره من القدر العظيم والجاه الجسيم والمهابة والوقار والمكانة والاستكبار ما يقصر عنه اللسان ويعجز عن تفصيله رسم البنان قبل ملكهم تلمسان وبعده أما محل أسلافه وقرار أوائله فهم أهل القصبة (قصبة تالوت) بإقليم الصحراء بأعالى أواسطها بنواحى «وادى سسلم» ونهر واصل وما يـلى ذينك من أطراف إقليم تلك النواحى فهى مقر أسلافهم وأوائلهم بعد انتقالهم من محل أسلافهم الأول مولاى عمران بن إدريس وبنيه الذى هو الريف وباديس حصته مع إخوته العشرة حيث قسمها بينهم أخوهم الأمير مولاى محمد بن إدريس بأمر جدتهم ، وسيأتى إشارة لشىء من ذلك وأما سبب نقلهم وحلولهم بإقليم تلك المدينة الآتى ذكرها فهو أنهم لما انقضى ملكهم

بتلمسان ومما حصل لهم بها مما يأتى ذكره رجعوا إلى محلهم المذكور ، وكان الراجع إليه جد الشريف المذكور وهو السيد يوسف بن زيان وكانت له أولاد بعد ذلك ولم يبق منهم إلا الشريف عبد الرحمن بن يوسف المذكور فهو الذى انتقل إلى تاقدمت المذكورة وولى إمارتها وولد له الشريف عبد القوى المذكور فنشأ بها صالحاً خيراً مباركاً شجاعاً كريماً عالما بعلوم جمة كتاباً وسنة وفقهاً مع علوم شتى تقصر عنها أطول يد لغيره فيها وله من الذكاء والفطنة وحسن السيرة ما ليس لغيره من أهل وقته قاطبة وهو الذى أقامها واستفحل ملكه بها وبقى بها مدة مديدة فى سنين عديدة فى سعود وإقبال وأمن وإفضال وعقد أعاد لها من إحسانها ما قد وهى واندثر مما خربه طوائف أجلاف العرب وقبائل البربر ، ثم إنه لما تم بها أمله انقضى أجله بعد أن خلف ولدين محمداً ومنداساً ، أما منداس فسيأتى خبره ، وأما محمد فقد أقام بها على ما كان أبوه وجده ، ومنه انقطع ملك بنى عبد الرحمن بها وتفرقت أولادهم عنها .

هذا إجماله وأما تفصيله فهو ما ذكره الإمام الهمام أبو المكارم محمد ابن عبد الله بن خلدون التلمسانى فيما أبداه فى تحقيق الأصول كما فى شرح سلاسل الفصول قائلاً ما خلاصة معناه أن الشريف المذكور أصله من شرفاء بنى زيان أهل القصبة قصبة تالوت بأعالى الصحراء بنواحى « وادى سسلم ونهر واصل » وما يلى ذينك من تلك النواحى وهى مقر أسلافهم وأوائلهم ولهم بها قدر عظيم وجاه جسيم ولبعضهم بعض إقامات بمدينة تلمسان سيما حيث صار لهم بها ملك عظيم وسلطان جسيم مما يزيد بقرب مائة سنة ومع ذلك ما رفضوا مقارهم المذكورة ومنازلهم المشهورة ، وقال ثم إن الشريف زيان القصبى التالوتى الذى هو مرجع نسب تلك القبيلة وأصلها وبه سميت فهو الشريف زيان بن زين العابدين

ابن يوسف بن إدريس الآتى تمام نسبه وكان أسلاف الشريف زيان المذكور المسمى به بنوه إنما يعرفون بشرفاء تالوت وتارة بأشراف قصبة تالوت ، وتالوت هذا اسم بلد عظيم ومواضع ومحال أقوام به وحوله قصور وقرى ومدارس كانت معمورة بأهاليها وأما قصبتها فهى خاصة بأشراف أوائل الشريف زيان المذكور وإنما حدثت لهم للنسبة الزيانية بسببه وسائر بلد تالوت كان به علماء وصلحاء وأفاضل وأشراف لا يحصون كثرة منهم الفقيه الحافظ العلامة الهمام القدوة الإمام أبو الحسن علىّ بن محمد التالوتى الأنصارى أحد شيوخ الشيخ سيدى محمد السنوسى صاحب العقائد وأخوه لأمه ومنهم الفقيه العلامة الهمام العابد الملازم الصيام والقيام أبو العباس أحمد بن عمر التالوتى الأنصارى وأخوه الناسك الأبر أبو الحسن علىّ بن عمر الأنصارى والثلاثة المذكورين من أصحاب سيدى محمد الهوارى دفين وهران رضى الله عنه ولهم معه أخبار طويلة فى كرامات جزيلة وكانت وفاته سنة ٨٤٣ وبعضهم أخ للشيخ السنوسى وقد توفى سنة ٨٩٥ ، وما وقع خراب بلد تالوت وقصبتها إلا بعد ذلك المذكور ، ومنهم غيرهم تركنا ذكرهم خوف الإطالة ولم تزل بعد معمورة وإليها ينسبون وغالب أهلهــا أنصار واشراف إلى اختلال نظام الملك بها بسبب ملك الأشراف « بتاقدمت » كما مرّ وتغلب الأعراب عليها ونواحيها بعد التاريخ المذكور فى حدود العاشرة وما يقاربها ، وأما الآن فهى مدائن بلاقع وأطلال رسوم شواسع أسوارها واقعة عليها ومراسم ديار لا أنيس بها غيرت أسماء سكانها الفاضلة القديمة بأسماء أقوام سالفة ذميمة شأنهم الغارات ونقض الذمم وخفر العهود ودناءة الهمم ليس لهم مبالاة بالدين ولا اعتبار لهم بسنن سيد المرسلين بعد أن كانت بها رياض العلوم زاهرة وأفنانها يانعة مثمرة القرآن بها رواياته محررة أى تحرير والأحاديث مضبوطة أصولها وفروعها

مقررة أى تقرير وكتب أصول المذهب القدماء لا يخالطها تبديل ولا تغيير وقد مر بتلك الديار وغالب الظن أنها « تاقدمت » رجل صالح عالم بالحديث والتفسير والفقه حافظ لكتاب الله محقق لرواياته السبعة بل العشرة وكان ذلك الرجل لا يفتر لسانه عن ذكر الله وتلاوة كتابه فبات تلك الليلة بالمحل المذكور فقام يتهجد ويصلى ويتلو وكان مبيته بقرب المقبرة فكشف له عن قبور الصالحين بها بأنوار ساطعة تخطف الأبصار بأقبية قبورهم عديدة فناداه إنسان من قبره قائلاً له يا هذا جزاك الله خيراً ذكرتنا بشىء طال العهد بمن كان يذكرنا به ، فقال ذلك الرجل الصالح هل فيكم من يحفظ القرآن ؟ فأجيب بأن غالب من حواليك من القبور من المهرة به رجالاً ونساء وأقرب ما إليه بسبعمائة جارية ممن يحفظن بجميع رواياته العشرة ويحفظن المدونة عن ظهر قلب وأما الأحرار من الرجال والنساء فلا يحصون كثرة وكان سبب ملكهم لتلمسان أن الشريف المذكور كان له سطوة عظيمة وطول يد عميمة مع شدة شكيمة فى الدين وإقامة دعائمه مع تمام الشفقة والرأفة بالمسلمين ، وكان له أربعة أولاد على نهجه وسبيله وتضلع بكتاب الله وسنة رسوله الشريف أحمد والشريف يوسف والشريف عبد الله والشريف زيان وكان لهم أيضاً مع ذلك من الشهرة وشدة الشكيمة فى الدين والقيام بوظائفه والوقوف على حدوده فى أنفسهم وتابعيهم والسطوة التامة والقوة العامة فى قطرهم المذكور والموروث لهم عن أسلافهم ، ثم إنه جرت أمور عظام وأسباب اقتضت طلب أهل تلمسان من الأشراف المذكورين تولية أحد منهم عليهم فى بلادهم لإقامة الدين وحقن الدماء وحفظ أموال المسلمين لعلمهم باستحقاقهم ذلك دون غيرهم فأجابوهم بعد الإباية وعقد الشروط المنعقدة بينهم واستكمال شرائط البيعة فكان أول من تولى منهم سلطنة تلمسان ومكث ثلاثين سنة فى أقوم حال وأتمه وأنعم عيش وأرغده هو

الشريف أحمد بن زيان المذكور وتخلف ابنه يوسف من بعده عشر سنين كذلك ثم إنه جرت خطوب بينه وبين بنى مرين فتغلبوا عليه وهجموا عليه فقتلوه وهدموا القصبة المعدة لهم بها وفر عمه زيان لذلك فرجع إلى بلاده المذكورة وقد خلف الشريف يوسف بن أحمد المقتول أولاداً منهم محمد وحمزة وأحمد مع أمهم فبقيت أمهم مع عيون لهم فى البلد وهم فروا بأنفسهم لبلادهم فى الصحراء ومكثوا فيها حتى تراجع أمرهم وتناسبت أحوالهم واشتدت شوكتهم واجتمع عليهم حشمهم ونصرتهم طوائف البربر وقبائل العرب وراموا افتكاك ملكهم وقوى اهتمامهم بأخذ ثأرهم من عدوهم ولم تزل أمهم وعيونهم يحثونهم على ذلك ويراسلونهم المرة بعد المرة ليغتنموا الفرصة بالرجوع إلى ملكهم إما بقهر القوارع المزعجات الدافعة أو بما يمكن من أنواع الاحتيالات النافعة، وأعداؤهم فى غياهب غيهم غارقون ولانقراض من كان يناوئهم بمحلهم آمنون مع طول زمان الوقائع الكائنة من أسلافهم وأمهم وعيونهم لهم إشراف واطلاع على اختلاف أحوال أعدائهم وأنهم إن امتثلوا لهم نالوا مرادهم فامتثلوا الأمر وساروا إليهم من محلهم بأموالهم وعددهم ومن أمكن من حشمهم وخلفائهم حتى انتهوا قريباً من المدينة على صفة الأعراب المنتجعين الطالبين رعى مواشيهم فى سوائح البلد وصحاريها فتسامع الناس بهم على الوصف المذكور وخرج لهم خلص أحبابهم للقائهم والسلام عليهم حتى بعض عظماء بنى مرين خرجوا إليهم لقوهم بقرية « بيدر » وضيفوهم بعظيم الأطعمة وكرائم الطرف وأنواع الأشربة وجلائل التحف ثلاثة أيام ثم رجع الناس كلهم بنو مرين وغيرهم فاجتمعوا مع خلص عيونهم وأمهم ومن معها خفية وأصحاب تدبيرهم فتشاوروا كيف السبيل إلى حصول مرادهم فاقتضى رأيهم أنهم يهجمون على عدوهم كما هجم عليهم ، فهجموا على أعدائهم وهم على حين

غفلة فدخلوا البلد واستولوا عليها فحمدوا الله وهم له شاكرون ، فغنموا من ذلك ما غنموا وقتلوا من قتلوا وعتقوا من عتقوا وفر بنو مرين وحزبهم منهزمين إلى مدينة فاس . ثم إن أولاد الشريف يوسف بن أحمد ابن زيان المذكور عقدوا البيعة لأخيهم الشريف أحمد المذكور ومكث بها ملكاً نحو ثلاث سنين ثم لما اطمأنوا واستكانوا بعثوا إلى عمهم الشريف زيان المذكور ليقدم عليهم فسار جاد السير إليهم مع الصحراء فقطع مع وادى سسلم إلى تلمسان فى أربعة أيام وترك أولاده فى حوز تالوت القصبة مع النساء والصبيان فاجتمع معهم ، فجعلوا لذلك مهرجاناً عظيماً واستلحقوا من شاءوا من أهلهم وأولادهم وجعلوا مهرجاناً آخر ومكثوا على ذلك مدة مديدة فى أيام سعيدة ، ثم دارت الدوائر وانقلبت العشائر وثارت الفتن ونشر بيت المحن فى أسباب يطول شرحها فآل أمرها إلى موت السلطان أحمد بن السلطان يوسف بن السلطان أحمد بن زيان المذكور وأمه وإخوانه وأولاده فى جم غفير منهم وأنصارهم ، ثم إن أهل تلمسان بعد ذلك جعلوا مولاى زيان بن زيان المذكور سلطاناً فبقى سلطاناً نحواً من أربعين سنة ، ثم استغلظ أمر بنى مرين وكادوا أن يحيطوا بالمدينة وصاروا يتأهبون لقتالهم ويفسدون عليهم أنصارهم بالرشـا يراسلون ويبعثون بذلك للعرب والبربر قبيلة قبيلة حتى أتت إليهم جميع العرب بنجدة وقوة وأحاطوا بهم وحاصروهم نحواً من أربع سنين فانتهكت تلمسان وهلكت وضاعوا بالجوع فالتقى الجمعان فانهزم جمعهم وانقلبوا مدبرين ودخل بنو مرين على من هناك من بنى زيان القصبيين التالوتيين وقتلوا السلطان مولاى زيان وأخاه الشريف عبد الله ، وهرب السيد يوسف أخوهم إلى بلدهم المذكور سالماً فتمكن بنو مرين منهم أى تمكن وغنموا ما عندهم وهدموا القصبة واستقر أمر بنى مرين فى مملكتهم بتلمسان ، والظاهر أن بنى مرين هؤلاء هم بنو وطاس لأن

بنى مرين الأول أعنى بنى عبد الحق ومن فى معناهم كان أعظم ملكهم للثمانمائة والمائة التاسعة والخمسون بعدها لبنى وطاس منهم فالجملة تسعمائة وخمسون وما كان لبنى زيان المذكورين ولاية على تلمسان إلا بعد انقضاء أمر بنى عبد الوادى بها وكان انقضاؤه فى أواخر الثامنة كبنى مرين الأول فتبين أن بنى زيان القصبيين إنما كان مع بنى وطاس منهم أو مع الطرفين والله أعلم وسيأتى لذلك مزيد بيان ، ثم إن السيد يوسف المذكور لما بلغ مأمنه بوصوله لموضع أسلافه موضع أبيه وجده أبى زيان ابن زين العابدين مكث فيه وتزوج أربع عشرة امرأة ولم يولد منهن سوى ياقوتة بنت عبد الله بن جعفر فولدت له عشرة أولاد وثلاث بنات فبقى منهم عبد الرحمن ومات الباقون فانتقل عبد الرحمن إلى « تاقدمت » ونزل فى عين الطوغ وحصل له بها من التعظيم والجاه الجسيم ما هو معروف لهم فى أسلافهم السابقين فتزوج حسنة بنت عامر القرشى فولدت له عبد القوى وجعفر وأحمد ومن هؤلاء الثلاثة تفرعت فروع شرفاء بنى زيان وتفرعت أولاده الثلاثة فأما السيد جعفر بن عبد الرحمن فسار قاصداً ناحية المشرق حتى نزل وادى الذهب في المكان المعروف بوادى عام وأمر ببناء قصر الذهب فمن بنيه السيد محمد بن عبد الله المعروف ويقال لذريته المقارنة وأما السيد أحمد بن عبد الرحمن فسار ونزل ببلاد القبائل القريبين من مدينة الجزائر الحالين ببعض شوامخ جبالها واستقرّ بها وله بها أولاد ويقال لذريته البراكنة منهم الولى الصالح سيدى أحمد بركان فجدهم السيد أحمد البركانى بإزاء مليانة فاسم جد كل من المقارنة والبراكنة السيد عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علىّ بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط

ابن عليّ وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الشريف عبد القوى فأقام يعنى سلطاناً في مدينة « تاقدمت » ثلاثين سنة ومات وترك اثنين من أولاده محمداً ومنداساً .

فأما محمد فتولى السلطنة « بتاقدمت » من بعد أبيه مدة مديدة ومات بها وبقيت ذريته بإزاء تاقدمت ونواحيها ، ومنه انقطعت السلطنة بها لبنى زيان القصبيين .

وأما منداس فدخل العبادة فى بلدته تلك على عادته من دوام النسك والانقطاع إلى الله تعالى ومات بها وترك ولدين أحمد الملقب بالمرابط وأخاه يوسف فأما الشريف يوسف فذهب وسار من بلاده إلى بلاد بنى ماحون بنواحى البحر وتزوج فيها ومات ولم تبق له ذرية وأما الشريف مرابط فكأنه انتقل هو وبنوه إلى نواحى « وادى شلق » بنحو منازل قبائل السويد وترك السيد راشداً هناك وبها توفى وقبره مشهور مزور بسوائح ظهر الملح منها والسيد راشد المذكور خلف ثلاثة أولاد السيد يحيى وعبد الله يوسف فعبد الله ويوسف لم يبق لهما ذرية وأما السيد يحيى فخلف ولده السيد على المشهور المكنى بأبى العسل وقبره مشهور مزور لقصة لهم فى ذلك والسيد عليّ خلف ولد الشريف خطاباً العلامة الهمام القدوة الإمام جد آل خطاب قاطبة وقبره مشهور مزور هنالك بملتقى « وادى شلق ووادى مينة » وهو ولد الشريف الأبر القطب الأكبر السيد عبد الله النقابى المذكور المتولى القطبانية سنة ٣٤ وهو دفين ثغر بلد مستغانيم الكائنة بساحل البحر المعروف بالمطمر منها وما عمرت تلك البلدة إلا بعد حلوله بها وإنما كان ذلك البلد قبله محلاً لرباط المجاهدين في سبيل الله وثغراً من ثغور المحتسبين لرباط الله وكان السيد المذكور نزوله وإقامته بها لذلك وحصل له فى ذلك المحل وقبله من الكرامات ما لا يحويه كتاب وبذلك الثغر توفى وقبره مشهور مزور وله قبر آخر

كذلك « بقرب عيذب » بساحل تلك البلدة شرقيها لقصة عندهم مشهورة له فى ذلك وقد خلف خمسة أولاد بتلك النواحى لكل منهم كرامات شهيرة ومناقب أثيرة يعلمها الخاص والعام من أهل وطنهم متواترة عندهم والخمسة الأولاد المذكورون كل منهم نال من الولاية العظمى حظاً وافراً وقد دعا الله تعالى والدهم ألا ينقطع عدد مراتب الخمسة الأولاد من بينهم إلى قيام الساعة فاستجيب له ولم تزل بركة ذلك مشاهدة فيهم عند الخاص والعام واسم جدهم جميعاً أعنى الخطابين هو السيد عبد الله بن خطاب بن علىّ بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس ابن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علىّ بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علىّ وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ محصل كلام ابن خلدون التلمسانى .

قال بعضهم بعد ما ذكر من أول النسب إلى آخره ما نصه وقد كنا نسمع من أعيان محل أولئك الأشراف أن سلسلتهم هذه تسمى عندهم بسلسلة الذهب وقد تواتر عندهم أن هذه السلسلة الخطابية العمرانية من أصح السلاسل وأتقنها من ابتدائها إلى انتهائها إذ لها طرفان وواسطة فالطرف الأول وهو من أحمد بن محمد إلى علىّ وفاطمة وهم ستة عشر فهذا لا ريب فيه لأحد لكون عمران هو ابن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علىّ وفاطمة رضى الله عنهما هو النسب المحقق الذى لا ريب فيه حسبما رتبه المؤرخون كابن خلدون ولكون عمران أيضاً أعطى من بين إخوته أرض الريف وبادس وانتقل هو إليه وتناسلت أولاده هناك بهما فقد ذكروا كما مرّ وكما فى كتاب رفع التدليس عن بنى إدريس أن الإمام محمد بن إدريس

لما قسم البلاد على إخوته عين لكل منهم محله المخصوص به واستوطن وترك ذريته به هو وعليه فيكون أن الإمام عمران ولد علياً هناك أو قبله وهو ولد حمزة وحمزة ولد داود وهو ولد يعقوب وهو ولد سعيد وسعيد ولد إدريس وإدريس ولد الحسن والحسن ولد يوسف ويوسف ولـــد زين العابـــدين وزين العابدين ولـــد زيان المذكور منشأ النسبة الزيانية كما مرّ ، ثم إن المنتقل من محله الأصلى المذكور لجدهم إنما هو فيما بين يعقوب والحسن إلى الديار القصبية التالوتية من هذا الطرف والله أعلم . والطرف الثانى من عبد الله بن الخطاب إلى إدريس بن عبد الله وهى خمسة عشر وهى يقينية أيضاً بتنقلاتها ومقارها وأضرحتها بمواضعها المعروفة بها ، وأما الواسطة فهى ما بين إدريس وداود بن حمزة بن عمران وهم عشرة وهؤلاء هم المنتقلون أو بعضهم عن محالهم ومحل أبيهم المذكور إلى نواحى الصحراء إذ كانت معمورة بملوكها وأعرابها الخيرين الصالحين بها فنالوا بها من الأمن والراحة على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم من الهناء والدعة التى يذكر عنها الوصف والمنتقلون إلى ما ذكر منهم من محال أبيهم وتصاريف أمورهم وسيرهم مذكورة فى مختصر الدر النفيس فى أحوال الأئمة الاثنى عشر من بنى إدريس فليراجع . قال بعضهم وهذه الخمسة المذكورة هى من التحقيق بمكان بحسب أصلها غير أنه وقع فيه اختلاف نسخ بالتقديم والتأخير منه ما تحرر لدينا اعتماداً على الأصول التى بأيدينا والله المعين بمنه وكرمه آمين . وسوف نذكر ترجمة مولانا الشريف عمران بن إدريس الإمام رضى الله عنهما من أول أمره إلى منتهاه وتتبع أولاده وتنقلاتهم فى سائر أمكنتهم وأسباب ذلك لينكشف الغيب ويزاح الريب كسائر تراجم بنى إدريس الاثنى عشر رضى الله عنهم ونتبع بنيهم وبنى بنيهم إلى وقتنا ممن علمناه منهم وبتمامهم يتم الكتاب والله الموفق للصواب بمنه وكرمه

آمين .

« وهذه شجرة آل خطاب منهم حسبما أثبته ابن خلدون التلمسانى وغيره هكذا عبدالله بن خطاب بن على بن يحيى بن راشد بن مرابط بن منداس بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن حسن بن إدريس بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن حمزه بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن على بن عمران بن إدريس بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ».



## تتمة

اعلم أن لفظة بنى زيان تطلق على قبائل عديدة وأنساب مديدة منهم شرفاء وعرب وبربر والمذكور فى المحل إثنان .

الأول « بنو زيان » ملوك تلمسان وهم بنو عبد الوادى نسبة إلى زيان ابن يوسف بن محمد بو زكريا الآتى ذكره وهم من زناتة وليس لهم حظ فى الشرف على ما قال المقريزى فى قلائد العقيان فى أنساب عرب الزمان ونصه : ومن زناتة بنو عبد الوادى ملوك تلمسان القائمون بها الآن وهم بنو عبد الوادى بن بار بن محمد بن بنى رحيك بن واسير بن مسلمين بن سترين بن أكيا بن أدد بن جانا وهو زناتة وأول من ملك منهم تلمسان جابر بن يوسف بن محمد بن زكريا بن بندركش بن طاع الله بن على بن القاسم بن عبد الوادى ولم تزل فى أعقابهم وربما غلبهم عليها بنومرين ملوك فاس التى صارت بيد سعد بن أبى حمو موسى بن غمراسن ابن زيان بن يوسف بن محمد بن زكريا المتقدم اه فالنسبة الزيانية إنما طرأت عليهم من زيان بن يوسف المذكور وأما قبله فانما يعرفون ببنى عبد الوادى أصل نسبهم المشهور وهم أقدم زماناً وأكثر ذكراً عند المؤرخين وربما التبست النسبتان حتى غلط فى ذلك كثير فقد نسب العلامة التنيسى الشرف لبنى عبد الوادى وقد علمت أنهم بربر ليس لهم فى العربية أصل فضلا عن الشرف ومثله ما قاله ابن خلدون فى العبر وفى مرآة المحاسن ما نصه أول ملوك بنى عبد الوادى بتلمسان يغمراسن أول

المائة السابعة وفى آخرها آخر ملوكهم الأمير أحمد بن الأمير عبد الله سنة ٩٥٣ ، وقال فى التعريف بالشيخ الإمام أبى الطيب الحسن بن يوسف بن يحيي بن مهدى بن محمد بن يوسف بن مهدى بن عبد الوادى قال أصله من بنى عبد الوادى إحدى قبائل زناتة المشهورة وهى التى كان لها الملك والسلطنة فى تلمسان وما إليها من ولد يغمراس بن زيان مقيم الدولة فى أوائل المائة السابعة ومهدها لبنيه بعده إلى أن تغلب الترك عليها وانتزعوها من أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن ، قال وقال العلامة الونشريشي ومن خطه نقلت ما نصه قدم حسن بن خير الدين التركى واستولى على تلمسان أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الأمير أحمد بن الأمير عبد الله ووزيره منصور بن أبى غنائم ولحقا « بدبدو » ومن انضاف إليها أمراء تلمسان وكبراؤها فغدرهم محمد ابن يحيى يعنى المرينى صاحب دبدو وأخذ أموالهم وأعتقهم وسرح منصور بن أبى محرم فى سنة ثلاث وخمسين ولا حاجة فى ذكر ما بعد ذلك من الأحداث التى لم تستقر كدخول الشرفاء ملوك المغرب إياها فإن الأمر استقر بها للترك إلى هذا التاريخ وهو سنة ست وأربعين وألف اه فكان جميع ملكهم بتلمسان إحدى وخمسين وثلاثمائة .

النسبة الثانية : نسبة بنى زيان لأشراف الأدارسة القصبيين ممن جمع أسلافهم بين ملك تلمسان وملك الصحراء على التعاقب إذ هم من بعض ملوك الصحراء مدينة تاقدمت قاعدة صحراء المغرب الأوسط آخر ملوكها المذكورين فى الفصل الثانى وقد علمت نسبهم وما آل إليه أمرهم فيما نص عليه ابن خلدون التلمسانى ولم يكن لبنى زيان الأدارسة ملك سلطنة بتلمسان إلا بعد انقراض بنى زيان العبديين وانقراض بنى مرين أعنى بنى عبد الحق إنما كانت حروبهم مع بنى مرين الوطاسيين فإنهم كان لهم المائة التاسعة والخمسون بعدها دل على ذلك ما سيأتى وما وجد

مكتوباً فى رخامة سقطت من جسر الرسيف فى الوادى عام تسعة وألف ونصه :

جسر الرسيف أبو العباس جدده فخر السلاطين من بنى وطاس
قد جاء فى غاية الإتقان والمنى لمن يمر به من عدوة فاس
وقد تكامل بنيانه عام غنا من هجرة المجتبى المبعوث للناس

كما فى القرطاس والمغرب وفى المرآة ما نصه آخر ملوك بنى مرين الوطاسيين وما إليها أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى المرسى حيث أسر أخوه فى وقعة وادى درنا للشرفاء على بنى وطاس فى رجب سنة ٩٥٣ ثلاث وخمسين وتسعمائة ومات فى تلك الأيام القريبة همّاً وغمّاً رحمه الله وتقدم بعض ذلك فاعلمه وقد قال فيها أيضاً وقد التقى الجمعان على مشرع أبى عقبة من وادى العسر مقاتلة فاس وسلطانهم أحمد بن محمد الوطاسى ومقاتلة مراكش وسلطانهم أبو العباس أحمد ابن محمد الشريف المعروف بالأعرج ومعه أخوه السلطان بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فانهزم السلطان أحمد الوطاسى وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضونه فحضر هنالك رجل على فرس يحول بينه وبينهم ويقول له سر يا أحمد ولم يزل معه إلى أن نجا وقال وفيها دكان السلطان أبو المعالى زيدان صاحب مراكش ابن السلطان أبى العباس أحمد المنصور التقى مع ولد أخيه صاحب فاس الساطان محمد الشيخ برؤوس الشعوب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال عام سبعة عشر وألف فانهزم السلطان عبد الله وفرّ إلى محلة أبيه على العرايش ثم رجع إلى جهة فاس وانتهى الى دار ابن مشعل من بلاد بنى يزناس واستولى عمه على محلته وسار الى فاس فدخلها وأقام إلى أوائل سنة ثمان عشرة ورجع إلى مراكش واستخلف بفاس العلج مصطفى باشا ثم إن السلطان عبد الله زحف إلى فاس فخيم مصطفى بظاهرها من ناحية باب

الفتوح وعرض لصاحب الترجمة عارض من الأمور العامة جاء فيه وتردد إلى محلة فركب إليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثانى سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان بين الظهرين يومئذ فانجلت الحرب على قتل مصطفى وفقد صاحب الترجمة رضى الله عنه وقد تقدم بعض ذلك فاعلمه ، وقد ذكر فى العبر أن كلا من بنى عبد الوادى وبنى مرين من زناتة أما بنو عبد الوادى فقد تقدم نسبهم وأما بنو مرين فقال المقريزى أيضاً فى الجمان قبل ذلك ما نصه من زناتة بنو مرين بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر وهم بنو مرين بن بورتاجى بن ماخوخ بن فاتى بن بدر فابن بحت بن عبد الله بن درفيص ابن المعز بن إبراهيم بن رخيك بن واشق بن القلين بن سر بن زكريا بن دريك بن أربدت بن جانا وهو زناتة ، ومن بنى مرين بنو عبد الحق ملوك المغرب الأقصى الآن المستقرون بمدينة فاس وهم بنو عبد الحق ابن يحيى بن أبى بكر بن خالد بن محمد بن روصيص بن فكرس بن كونان طريف بن بدر المتقدم ذكره ، وأول من ملك منهم السلطان أبو سعيد ابن عثمان بن عبد الحق استولى على بعض نواحى الغرب ثم قتل فى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وملك بعده مدينة فاس أخوه محمد بن عبد الحق ثم تداولتهم أعقابهم إلى أن كان منهم السلطان أبو الحسن المرينى فى حدود أيام الناصر محمد بن قلاوون فعظم سلطانه واتسعت مملكته ولم يزل ينقل فى أعقابهم إلى أن صار الأمر فيهم إلى السلطان أبى سعيد عثمان ابن أبى العباس أحمد بن السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان أبى سعيد عثمان بن أبى يعقوب بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق .

## الفصل الثالث

فى أخبار عبد القوى بن العباس الراشدى التوجانى الزناتى ثالث الثلاثة المذكورة .

وملكه مجازى بالنسبة لتلك البلدة المذكورة . وذلك أنه لم يكن له ملك حقيقى على مدينة « تاقدمت » المذكورة بحيث كان له الحل والعقد بها والإقامة بها فى حال قيامها بأسوارها وقصبتها خلال أسواقها ومساجدها وأربطتها المعدة لذخائرها لجندها وعساكرها . وإنما كان متغلباً على أوطانها وسوائحها فى حال دثورها وانحلال أمرها فصار ملكه بها مجازياً على سبيل التغلب لأعرابها وقراها ومن انزوى إليها وإنما كان ملكه بدوياً لم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين « ينتابون » فى مشاتيهم إلى « مزاب والزاب » ونحوهما وينزلون في مصائف بلادهم هذه من التل والتى تغلبوا عليها « ونشريش ومنداس وتافركيت » وما حول إلى ذلك مثل الجعيبات وتاوعزوت وغيرها ولم يكن له فى جميع ذلك قرية مخصوصة وإنما كان لما غلب مغراوة على جبل ونشريش اختط حصن « مرات » بعد أن كان منديل المغراوى شرع فى اختطافه فبنى منه القصبة فأكمله ولده محمد بن عبد القوى من بعده وسيأتى جميع ذلك مفصلاً في كلام ابن خلدون فإنه ذكر فى كتابه العبر ترجمة عبد القوى المذكورة ونسبه وقومه وبنى توجين بأتم بيان وأوضح تبيان وله فى كل من الطبقات الثلاث الآتية أخبار

وتنقلات له ولقومه ذكرنا جميعها كذلك .

ونص كلام ابن خلدون فى ذلك مبتدئاً بالأول الخبر عن بنى توجين من شعوب بنى بادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصائره كان هذا الحى من أعظم أحياء بنى بادين وأكثرهم عدداً وكانت مواطنهم خفافير وادى شلق قبلة جبل ونشريش من أرض السرسو وهو المسمى لهذا العهد نهر واصل وكان بأرض السرسو بجهة المغرب منه بطون من لواتة وغلبهم عليها بنو وجدخى ومطماطة ثم صارت أرض السرسو لبنى توجين هؤلاء واستضافوها إلى مواطنهم الأولى وصارت مواطنهم ما بين موطن بنى راشد وجبل دراك فى جانب القبلة وكانت فيهم الرئاسة أيام صنهاجة لعطية بن دفلتن وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرفيق ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل وادى شلق تحيّز بنو توجين هؤلاء وكان لهم فى حروب حماد آثار مذكورة وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف وأوفد لقمان ابنه بدراً على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشاً فلما انهزم حماد ادعى لهم باديس انحياشهم إليه وسوغ لهم ما غنموه وعقد للقمان على قومه ومواطنه وعلى ما يفتحه من البلاد ودعوته ثم انفرد برئاستهم بعد حين بنو دافلتن ويقال إن دافلتن بن أبى بكر بن الغلب ، وكانت رئاستهم لعهد الموحدين لعطية ابن مناد بن العباس بن دافلتن وكان يلقب عطية الحيو وكانت بينهم لعهده وبين عبد الوادى حروب كان متولى كبرها من بنى عبد الوادى شيخهم لذلك العهد ابن القاسم فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الوادى آخراً على مواطنهم كما نذكره ، ولما هلك عطية « الحيو » قام بأمرهم ابنه أبو العباس وكانت له آثار فى الإجلاب على ضواحى المغرب

الأوسط ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستمائة وقد عامل تلمسان يومئذ أبو يزيد بن لوخان من اغتاله لقتله وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوى فانفرد برئاستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكره .

وكان من أشهر بطون بنى توجين هؤلاء يومئذ بنو يدلاتن وبنو قمر وبنو مادون وبنو زنداد وبنو قاضى وبنو مامت ويجميع هؤلاء الستة بنو مرت ثم بنو تيغرين وبنو يزناتن وبنو منكوش ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو سرغين ونسب بنى زانداد دخيل فيهم وإنما هم من بطون مفراوة ، وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوى بن العباس بن عطية بن الحيو ، هكذا رأيت نسبة لبعض مؤرخى زناتة المنكوشي وكانت رئاسة بنى توجين جميعاً عند انقراض بنى عبد المؤمن لعبد القوى بن العباس بن عطية الحيو وأحياؤهم جميعاً تلك المجالات القبلة فلما وهى أمر بنى عبد المؤمن وتغلب مفراوة على بسائط متيجة ثم على جبل ونشريش نازعهم عبد القوى هذا وقومه أمر ونشريش وغالبوهم إلى أن غلبهم عليه واستقر فى ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بنى مدن جميعاً وكان الظهور منهم لبنى يدلاتن ورئاسة بنى يدلاتن لبنى سلامة وبقى بنو يزناتن من بطونهم بمواطنهم الأولى قبلة ونشريش وكان من أحلاف بنى عطية الحيو بنو تيغرين منهم خاصة وأولاد عزيز بن يعقوب يعرفون جميعاً بالوزراء ولما تغلبوا على الأوطان والبلول وأزاحوا مفراوة عن لمدية ونشريش وتافركينت واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غريبها مثل منداس والجعبان وتاوغرت ورأسهم لذلك العهد عبد القوى بن العباس والكل لأمره مطيعون فصار له ملك بدوى لم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة وائتلاف الرحلتين ينتاجون فى مشاتيهم إلى مصاب الزاب وينزلون فى مصائف بلادهم هذه من التل ، ولم يزل هذا شأن عبد القوى وابنه

محمد إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده وقتل بعضهم بعضاً وتغلب بنو عبد الوادى على عامة أوطانهم وأحيائهم واستبد عليهم بنو يزناتن وبنو يدلاتن فصار إلى بنى عبد الوادى وبقى أعقابهم بجبل ونشريش إلى أن انقرضوا على ما نذكره بعد . وكان عبد القوى لما غلب مفراوة على جبل ونشريش اختط حصن مرات بعد أن كان منديل المفراوى شرع فى اختطافه فبنى منه القصبة لم يكمله فأكمله محمد عبد القوى من بعده .

ولما استبد بنو أبى حفص بأمر أفريقية وصارت خلافة الموحدين نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط ودخلت فى طاعته قبائل صنهاجة وفرت زناتة أمامه وردد إليهم الغزو فأصاب منهم وقبض فى بعض غزواته على عبد القوى بن العباس أمير بنى توجين فاعتقله بالحضرة ثم منّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر ، ونهض الأمير أبو زكريا بعده إلى تلمسان فكان عبد القوى وقومه فى جملته حتى إذا ملك تلمسان ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوى هذا على قومه ووطنه وأذن له فى اتخاذ الأدلة فكانت أول مراسم الملك لبنى توجين هؤلاء وكانت حالهم مع بنى عبد الوادى تختلف فى السلم والحرب ولما هلك السعيد على يد يغمراسن وقومه كما ذكرنا استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة فنفروا إلى المغرب ومسابقة بنى مرين إليه فبقى معه عبد القوى فى قومه سنة سبع وأربعين وانتهوا إلى تازى واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بنى مرين فى قومه فنكصوا واتبعهم إلى أى مكان فكان اللقاء وانكشفت جموع بنى يادين وكانت الهزيمة التى ذكرناها فى أخبار بنى عبد الوادى وهلك عبد القوى في سنة ٦٤٧ مرجعه منها بالموضع المعروف بأحمون من مواطنهم وتصدى للقيام بعده بأمرهم ابنه يوسف فمكث فى تلك الإمارة أسبوعاً ثم قتله على حدث أبيه أخوه محمد بن عبد القوى وولى عهد أبيه سابع مواراته وفر ابنه

صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال لمدية فأقام بها هو وبنوه واستقل محمد برئاسة بنى توجين واستغلظ ملكه وكان « الفحل الذى لا يقرع أنفه » ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وعمد إلى حصن تافركينت فنازله بها يومئذ حافده على بن زيان بن محمد فى عصابة من قومه فحاصره أياماً وامتنعت عليه فرحل عنها ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا اليه أباه من غزو بنى مرين فى بلادهم فأجاب ونهضوا سنة سبع وخمسين ومعهم نفراوة فانتهوا إلى كلومان ما بين لازى وأرض الريف ولقيهم يعقوب بن عبد الحق فى جموعه فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه وكانت بينه وبين يغمراسن بعد ذلك فتن وحروب فنازله فيها بجبل ونشريش مرات وجاس خلال وطنه ولم يقع بينهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك وسموه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم وكانوا جميعاً منحاشين إلى الدولة الحفصية وكان محمد بن عبد القوى كثير الميل للسلطان المنتصر ولما نزل النصارى الإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وطعموا فى تلك الحضرة بعث المنتصر إلى ملوك زناتة بالصريخ فصرفوا وجوههم إليه وخف من بينهم محمد بن عبد القوى فى قومه ومن احتشد من أهل وطنه ونزل على السلطان بتونس وأبلى فى جهاد العدو أحسن البلاء وكانت له فى أيامه معهم مقامات مذكورة ومواقف مشهورة وعند الله محتسبه ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القوى فى الانصراف إلى وطنه أسنى السلطان جائزته وعم بالإحسان وجوه عساكره وأقطعه بلاد نفراوة وأوماش من وطن الزاب وأحسن منقلبه ولم يزل بذلك متعلقاً بطاعته ومستظهراً على عدوه بالانحياش إليه . ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستمرارهم بملكه وصل محمد بهم فى الاستظهار على يغمراسن وأوجد ابنه زيان بن محمد عليهم

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان اسن سنة سبعين وأوقع يغمر فى الواقعة التى ملك فيها ابنه فارس نهض محمد بن عبد القوى للقائه ومر فى طريقه بالبطحاء وهى يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها وبقى يعقوب بن عبد الحق متلوماً عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم حذراً عليهم من غائلة يغمراسن ففعل وملأ حقائبهم بإتحافه وعين لهم مائة من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالصلات والخلع الفاخرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والأخبية والعملات وارتحلوا ولحق محمد بن عبد القوى بمكانه من جبل ونشريش واتصلت حروبه مع يغمراسن وكثر إجلابه على وطنه وعينه فى بلاده وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب وإتحافه بالعتاق من الخيل والمستجاد من الطرف حتى إن يعقوب اشترط على يغمراسن فى مهادنته أن يجعل سلمهم من سلمه وحربهم من حربه وكان نهوض يعقوب بن عبد الحق سبباً لما اشترط عليه ذلك وحج فى قبوله فنهض إليه وأوقع به «بخرزورة» ثم أناخ عليه بتلمسان ووافاه هناك محمد بن عبد القوى فلقيه بالقصاب وعاثوا فى نواحى تلمسان نهباً وتخريباً ثم أذن يعقوب لمحمد وقومه فى الانطلاق إلى بلادهم وتلوم هو بمكانه من نواحى تلمسان مدة منجاتهم إلى مكانهم من ونشريش حذراً عليهم من اعتراض يغمراسن ولم يزل شأنهما ذلك إلى أن هلك يغمراسن فى سدلونة من بلاد مفراوة خاتمة إحدى وثمانين وفى خلال ذلك استغلظ بنو مرين على بنى عبد الوادى واستوثق لمحمد هذا ملكه فتغلب على بلاد صنهاجة بجبال لمدية وأخرج الثعالبة من جبل ينطرى بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم فانزاحوا عنه إلى بساط متيجة وأوطنوها واستولى محمد على حصن « لمدية » وهو المسمى بأهل لمدية بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وياء النسب فى آخرها وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها

بركين بن زيرى ولما تولى محمد عليها وعلى نواحيها أنزل أولاد عزيز ابن يعقوب من حشمه بها وجعلها لهم موطناً وولاية وفر بنو صالح بن أخيه يوسف بن عبد القوى من مكانهم بين صنهاجة منذ قتل أبوه يوسف كما ذكرناه ولحقوا ببلاد الموحدين بأفريقية فلقوهم مبرة وتكريماً وقطعوا لهم بضواحي قسطنطينية فى إيالة الملوك من آل أبى حفص يعسكرون معهم فى غزواتهم ويبلون فى حروبهم ويقومون بوظائف خدمتهم وكان الموالى من أولاد عزيز على لمدية ومواطنهم الأول ماخنون وكان بين يديه يدلائن أيضاً من بنى توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علىّ مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوى وقومه فاتصل ملك محمد بن عبد القوى فى نواحى المغرب الأوسط ما بين مواطن بنى راشد إلى جبال صنهاجة بنواحى لمدية وما فى قبلة ذلك من بلاد السرسو وحماله إلى أرض الزاب وكان يبعد الرحلة فى مشتاه فينزل الروسن ومفراوة المسبلة ولم يزل دأبه ذلك ولما هلك يغمراسن سنة ٨١ كما ذكرناه استجدت الفتنة بين عثمان ابنه وبين عبد القوى على أثر ذلك سنة ٨٤ وولى من بعده ابنه سيد الناس فلم تطل مدة ملكه وقتله أخوه موسى من بعد مهلك أبيه وأقام موسى بن محمد فى إمارة بنى توجين نحواً من عامين وكان من أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم فأجمع لذلك ونزلها ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستماتوا جميعاً فثاروا به فقاتلهم ثم انهزم مثخناً بالجراحة والجوع إلى مهاوى الحصن فتردى فيها وملك من بعده عمر ابن أخيه إسماعيل بن محمد مدة أربعة أعوام ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه وولوا كبيرهم إبراهيم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم يقال ما ولى بعد محمد فيهم مثله وفى خلال هذه الولايات استغلظ عليهم بنو عبد الوادى

واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد فنهض إليهم سنة ست وثمانين وحاصرهم بجبل ونشريش وعاث فى أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مفراوة ثم نازل حصن تافر كينت وملكها بمداخلة القائد بها غالب الحصن مولى سيد الناس بن محمد وقفل إلى تلمسان ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزون وامتنعوا عليه مراراً ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بنى عبد القوى فنبذوا لهم العهد وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن وفرضوا لهم المغارم على بنى يدلاتى ومتلك عثمان بن يغمراسن مسلك التخريب بين قبائل بنى توجين وتحريضهم على إبراهيم بن زيان أميرهم فعدا عليه زكراز بن أعجمى شيخ بنى مادون وقتله فى البطحاء فى إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه وولى بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوى بايع له تبغرين واختلف سائر بنى توجين فأقام بعض سنة وعثمان بن يغمراسن فى خلال هذا يستأنف بنى توجين شعباً شعباً إلى أن نهض إلى جبل ونشريش فملكه وفرّ أمامه موسى بن زرارة إلى نواحى لمدية وهلك فى سفره ذلك ثم نهض عثمان إلى لمدية سنة ثمان وثمانين بعدها فملكها لمداخلته لمدية فى قبائل صنهاجة وغدروا بأولاد عزيز فصالحوا عثمان بن يوسف على الإتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوى وبنيه فملك عثمان بن يغمراسن عامة بلاد توجين بما دهمه من مطالب بنى مرين أيام يوسف ابن يعقوب فولى على بنى توجين من بنى محمد عبد القوى أبو بكر بن إبراهيم بن محمد مدة عامين أخاف فيها الناس وأساء السير ثم هلك فنصب بنو تبغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصم وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف بن زيان بن محمد وزحفوا إلى جبل ونشريش فحاصروا به عطية وبنى تبغرين عاماً أو يزيد وكان يحيى بن عطية كبير بنى تبغرين هو الذى تولى البيعة لعطية الأصم فلما

اشتد بهم الحصار واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغب فى ملك ونشريش فبعث الجيوش لتنصر أخاه أبا سرحان ثم أخاه أبا يحيى كان نهوض أبى يحيى سنة إحدى وسبعمائة فتوغل فى ناحية الشرع ولما رجع محمد إلى جبل ونشريش هدم حصونه وفعل ونهض ثانية إلى بلاد بنى توجين فشردهم عنها وأطاعه أهل تافرت كينت ثم انتهى إلى لمدية فافتتحها صلحاً واختط قصبتها ورجع إلى أخيه يوسف ابن يعقوب فانتفض أهل فركينت بعد صدوره عنهم ثم راجع بنو عبد القوى بصائرهم فى التمسك بالطاعة ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم وولى عليهم ابن الناصر بن عبد القوى وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته واستقام ملكه وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم واستقام على طاعته وقتاً ثم انقض بين يدى ملكه سنة ست وحمل قومه على الخلاف ، ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجافى بنو مرين من بعده لبنى يغمراسن عن جميع الأنصار ليتملكوها بالمغرب الأوسط فاستمكن بنو يغمراسن منها ودفعوا المتغلبين عنها ولحق المغل من أولاد عبد القوى ببلاد الموحدين فجعلوا من دولتهم إلى محل الآثار والتركمة وكان للعباس ابن محمد بن عبد القوى من الملوك من آل أبى حفص مقام الخلة والمصافاة إلى أن هلك وبقى عقبة فى جند السلطان ولما خلا الجو من هؤلاء المرشحين تغلب على جبل ونشريش من بعدهم كبير بنى تبغرين أحمد بن محمد ابن أعقاب يعلى بن محمد السلطان ببنى يغزن فأقام يحيى بن عطية هذا فى رئاستهم أياماً ثم هلك وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية ثم هلك وولى من بعده ابنه عمر بن عثمان واستقل مع قومه بجبل ونشريش واستقل أولاد أولاد عزيز بلمدية ونواحيها ورياستهم ليوسف بن على بن حسن بن يعقوب وكل فى طاعة أبى حمو سلطان بنى عبد الوادى لما غلبهم

على أمرهم وانتزع الرئاسة من بنى عبد القوى أمرائهم إلى أن خرج على السلطان أبى حمو ابن عمه يوسف بن يغمراسن ولحق بأولاد عزيز فبايعوه ودخلوا فى كناسة عمر بن عثمان كبير بنى تبغرين وصاحب جبل طى ونشريش فأجابهم وأطفق معهم سائر الأعشار وبكوسة وبنو يزناتى ورجعوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبى حمو فى معسكره بنهل ففضوه وكان شأن فتنته معهم ما ذكرناه فى أخبار بنى عبد الوادى إلى أن هلك السلطان أبو حمو وولى ابنه أبو تاشفين فنهض إليهم فى العساكر وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالطة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه فداخل السلطان أبا تاشفين فى الانحراف عنه فلما نزل بالجبل ولحق بأبى تاشفين دله على مكان فى الحصن فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فقبض عليه وقيد أسيراً إلى السلطان أبى تاشفين فقتل بين يديه قطعاً بالرماح سنة تسع عشرة وبعث برأسه إلى تلمسان وصلب شلوه بالحصن الذى امتنع فيه أيام انتزائه ورجع أمر ونشريش إلى عمر بن عثمان هذا وحصلت ولايته لأبى تاشفين إلى أن هلك بتلمسان فى بعض أيامهم مع بنى مرين أعوام نازلها السلطان أبو الحسن كما ذكرناه فى أخبار الحصار ثم لما تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل وكان خير الأبناء ذمة وطاعة وخلوصاً فى الولاية وصدقاً فى الانحياش وإحساناً للملكة وتوفيراً للجباية ولما كانت نكبة السلطان أبى الحسن بالقيروان وتطاول الأعياض من زناتة إلى استرجاع ملكهم انتزى بضواحى لمدية من آل عبد القوى عدى بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوى ونازع الخوارج فى دعوتهم واشتمل على بنى عزيز هؤلاء وبنى يزناتلى جيرانهم وزحف إلى جبل ونشريش لينال مع الحشم مديلى أمرهم والمداخلين لعدوهم فى قطع

دابرهم وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان وبايع نصر لمسعود بن أبي زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوى من أعقابهم ثم خلص إليهم من جملة عدى وقومه فامتنعوا عليه ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه ثم دخل عدى فى جملة السلطان أبى الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر وبقى مسعود بينهم وملك أبو سعيد ابن عبد الرحمن لما ملك تلمسان هو وقومه فلم يـزل هنـالك إلى أن غلبهم السلطان أبو عنان فصار فى جملته بعد أن فر إلى زوارة واستنزله منها ونقله إلى فاس وانقضى ملكهم ودولتهم وانقطع أثر بنى محمد بن عبد القوى وأقام نصر بن عمر فى ولاية جبل ونشريش وعقد له السلطان أبو عنان على سائر دولته ولم يزل قائماً بدعوة بنى مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبو حمو الأخير وهو ابن موسى بن يوسف على الأمر فأعطاه نصر الطاعة ثم اضطرمت نار الفتنة بين العرب وبنى عبد الوادى أعوام سبعين وسبعمائة وقاموا بدعوة أبى زيان بن السلطان أبى سعيد عم أبى حمو فانحاش نصر بن عمر إليهم وأخذ بدعوة الأمير أبى زيان حيناً ثم هلك أيام تلك الفتنة وقام بامرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلا مذاهبه وهو لهذا العهد وهو سنه ثلاث وثمانين صاحب ونشريش وحاله مع أبى حمو مختلفة الطاعة والخلاف والله رب الأمور لا مالك غيره .

وأشار للطبقة الثانية بقوله الخبر عن بنى يزناتن إحدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التغلب والإمارة وذكر أوليتهم ومصائرهم كان بنو يزناتن هؤلاء آخر قبائل بنى توجين وأعزهم جانباً وأكبرهم صيتاً ولما دخل بنو توجين إلى المغرب الأوسط قـاموا بمواطنهم الأولى مـا بين ما صون وزمتـة ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادى شلق وكانت رئاستهم

فى نصر بن على بن تميم بن يوسف بن بونوال وكان شيخهم مهيب ابن نصر منهم وكان عبد القوى بن العباس وابنه محمد أمير بنى توجين يختصونهم بالأثرة والتجلة لمكانهم من قومهم وما يؤنسون من عظيم غنائهم وكان محمد بن عبد القوى فى سلطانه يؤثر عليهم من أولاد عزيز وكان واليهم لعهده وعهد بنيه عبو بن حسن بن عزيز وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوى إلى ابنته فانكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب فسرت خؤولته لمحمد بن عبد القوى وعلا كعبه فى إمارته ثم تولى بعده ابنه على بن نصر وكان له من الولد نصر وعشرة آخرون يعرفون بأمهم واسمها « تاسر غنيت » وولى بعده نصر بن على فطال أمد إمارته فى قومه وإختلف بنوعبد القوى وغلب بنو عبد الوادى على ما بأيديهم فصرفت ملوك زناتة وجه العناية اليه فبعد صيته وعرف بنوه من شهرته وكان ولوداً يقال إنه خلف ثلاثة عشر من البنين ما منهم إلا صاحب حرب أومغنب ومن مشاهيرهم عمر الذى قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل فى اغتياله ففر وأدرك وقتل بمرات ومنهم منديل الذى قتله بنو تبغرين أيام ولوا على بن نصر وقتلوا معه عبو بن حسن بن عزيز ومنهم عنان ومات قتيلا فى حصار تلمسان أيام أبى تاشفين ومنهم مسعود ومهيب وسعد وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف فى آخرين معروفين عندهم هذا شأن أولاد نصر بن علىّ بن مهيب وأما ولد عشر أخيه فكان رسياً على بنى أبيه وكانت إحدى وصائفهم أسقطت بدار عثمان بن يغمراسن وادعت الحمل من سيدها أبى الفتوح وجاءت بأخ لعيسى يسمى معروفاً ربى بدارهم واستوزر لأبى حمو وأخيه من بعده وبلغ المبالغ فى دولتهم وكان يدعى معروفاً الكبير ولحق به أيام رياسته فى دولة أبى حمو الأول أخوه عيسى بن أبى الفتوح مغاضباً لقومه فسعى له فى الولاية على بنى راشد وجباية أوطانهم

وأنزله بلدة سعيدة فكانت له إمارة وكان له من الولد أبو بكر وعبو وطاهر وترماء ، وعندما غلب بنو مرين على بنى عبد الوادى ولاهم السلطان أبو الحسن على بنى يزناتن متوالين وأما ولد تاسرغنت من بنى علىّ بن نصر بن مهيب فلم يكن لهم ذكر فى رياسة قومهم إلا أن بعض وصائفهم أسقطت أيضاً إلى دار بنى تاشفين فولدت غلاماً يعرف بعطية ابن موسى نشأ فى دارهم ونسب إلى بنى تاسرغنت هؤلاء وتناولته النجابة فى خدمتهم فولوه الأعمال النبهة وهو لهذا العهد عامل أبى حمو الأخير على شلق وما إليها وقد غلب العرب لهذا على وطن يزناتن وملكوا عليهم يعود وماحون وبقيت جبايتهم بجبل ورنيد وعليهم لهذا العهد سعيد بن عمر من ولد نصر بن علىّ بن نصر بن مهيب يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب الإتاوة وبيد الله تصاريف الأمور سبحانه .

وأشار للطبقة الأخيرة بقوله الخبر عن بنى راشد بن محمد وذكر وليتهم أو تصاريف أحوالهم قال فى العبر : وإنما قدمنا ذكرهم قبل استتمام بنى بادين لأنهم لم يزالوا أحلافاً لبنى عبد الوادى ومن جملتهم فكانت أخبارهم من أخبارهم وأما راشد أبوهم فهو أخو يادين واختص بنوه كما قلنا ببنى عبد الوادى وكانت مواطنهم بالجبل بالصحراء المعروف براشد اسم أبيهم وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبيلة تاسلت وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد وكان جبل هوارة موطناً لبنى يلومة الذين كان لهم الملك كما قدمنا ولما اضمحل أمر بنى يلومة وذهبت دولتهم زحف بنو راشد هؤلاء من بطونهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبنى ورنيد فشنوا عليهم الغارات وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجئوهم إلى الأوعار فاستوطن ورنيد الجبل ثم استوطنوا جبلهم المطل على تلمسان واستوطن مديونة جبل تاسالت وملك بنو راشد بسائطهم ثم استوطنوا جبلهم المعروف

بهم لهذا العهد وهو بلد بنى يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان فى أول الإسلام وكان منهم أبو قرة الصفرى كما قدمنا وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمود الأمير الذى قتله جوهر الصقلى قائد الشيعة كما ذكرنا في أخبارهم ويعلى هو الذى اختط بهذا الجبل مدينة « إيكفان » التى هدمها جوهر يوم قتله فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصناً لهم ومحلاتهم فى ساحة القبلة إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد وألجأوهم إلى الجبل وكان غلب بنى راشد على هذه الأوطان بين دخول بنى عبد الوادى إلى المغرب الأوسط وكانوا شيعة لهم وأحلافاً فى فتنتهم مع بنى توجين وبنى مرين وكانت رياستهم فى بيت منهم يعرفون بنى عمران وكان القائم بها لأول دخولهم إبراهيم بن عمران واستبد عليه أخوه وترمار وقام بأمرهم إلى أن هلك فولى ابنه مقاتل بن وترمار وقتل عمه إبراهيم وافترقت رياسة بنى عمران من يومئذ بين إبراهيم وبنى وترمار إلا أن رياسة بنى إبراهيم أظهر فولى بعد إبراهيم بن عمران ابنه وترمار ولا أدرى معاقباً القائم أو توسطهما أحد ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبى الحسن وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى بن عبد الرحمن بن وترمار ابن ابراهيم وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجوت بن وترمار وانقرض أمر بنى عبد الوادى وأشياعهم ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى فكان بنو وترمار هؤلاء ممن صار إلى الغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبنى عبد الوادى الكرة الثالثة على يد أبى حمو الأخير موسى بن يوسف وكان شيخ بنى راشد لعهده ابن أبى يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من إيالة بنى مرين فاتهمه أبو حمو بمداخلتهم فقبض عليه واعتقله مدة بوهران وفرّ من معتقله فلحق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدة ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبى حمو

فولاه على قومه ثم قبض عليه واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعمائة وانقرض أمر بنى وترمار بعد ما قتل وترمار وأخاه أبا زركن ثم ابنه يوسف بن أبى زركن ثم آخرين من بعده لم تحضرنى أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو وترمار بن إبراهيم وقد ذهبت لهذا العهد رئاسة أولاد عمران جميعاً وصار بنو راشد هؤلاء حول السلطان وبقيتهم يحملهم على الحال التى ذكرناها والله وارث الأرض ومن عليها .

## الخاتمة

فى ذكر[1] من ملوك هذه الأمة المحمدية صلى الله على صاحبها وسلم وشرف وكرم مبتدئاً بذكر الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم فمن بعدهم من ذوى الملك العضوض إلى آخر المائة الثانية عشرة من الهجرة فأقول :
خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه اسمه عبد الله بن أبى قحافة عثمان بويع له فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة وأقام سنتين وثلاثة شهور وتسعة أيام وتوفى ليلة الجمعة سابع جمادى الأخيرة سنة ثلاث عشرة وسنه ثلاث وستون سنة .

خلافة عمر بن الخطاب هو أبو حفص رضى الله عنه بويع له بعد موت أبى بكر رضى الله عنه وأقام عشر سنين وستة أشهر وخمس ليالٍ وتوفى ثالث عشرين فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وسنه ثلاث وستون سنة .

خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه كنيته أبو عبد الله بويع له أول المحرم سنة أربع وعشرين وأقام ثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً وتوفى فى شوال سنة خمس وثلاثين وسنه اثنان وثمانون سنة ودفن بالبقيع.

خلافة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بويع له بعد وفاة عثمان وأقام أربع سنين وتسعة أشهر وتوفى ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة

(1) هنا بياض فى الأصل ولعل الساقط كلمة ( بعض ) أو ( جماعة ) .

أربعين وسنه ثلاث وستون سنة ودفن بالكوفة .

خلافة الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بويع له يوم مات أبوه وأقام ستة أشهر وخلع نفسه فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومات سنة خمسين وسنه سبع وأربعون سنة ودفن بالبقيع .

وروى سفينة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الخلافة بعدى ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً عضوضاً وكان آخر ولاية الحسن تمام ثلاثين سنة من خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنهم فقد انقضت الخلافة بآخر خلافة سيدنا الحسن بن علىّ تسليماً لسيدنا معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سدّاً لباب الفتن وحقناً لدماء المسلمين المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام فى حق الحسن : « ان ولدى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

وأما خلفاء بنى أمية فهم كما فى « بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء » ما نصه : أول الخلفاء بعد عثمان رضى الله عنه معاوية وهو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان واسمه سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ويلتقى هو والنبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف وأولاده عبد الرحمن ويزيد وعبد الله وهند ورملة وصفية وعائشة ثم ولى الأمر يزيد ولده بعده وأولاده معاوية وخالد وهو أبو سفيان وعبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر وعمير وعبد الرحمن وعتبة الأعور وزيد ومحمد وهو أبو بكر وحرب والربيع وعبد الله وفى أيام يزيد قتل الحسين ابن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما « بكربلا » فى قصته المعروفة ثم « مروان بن الحكم » هو أبو الحكم وقيل أبو عبد الملك وهو مروان ابن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ومروان هذا تنسب إليه خلفاء بنى مروان وأولاده عبد الملك ومعاوية وأم عمرو

وعبيد الله وأبان وعبد الله وداود وعبد العزيز وعبد الرحمن وأم عثمان وبشر ومحمد عبد الملك بن مروان ولى بعد أبيه وكنيته أبو الوليد ويقال له أبو مروان ولقبه رشح الحجر لبخله ويكنى أبا ذباب لبخره وأولاده الوليد وسليمان ومروان الأكبر ويزيد ومروان ومعاوية وهشام ويسار والحكم وعبد الله ومسلمة وعيينة ومحمد وسعيد والحجاج وقبيصة فولى بعده الوليد بن عبد الملك ويكنى أبا العباس وأولاده أربعة عشر ذكراً سوى البنات ، منهم « يزيد وإبراهيم » وليا الخلافة ومنهم العباس فارس بنى مروان كان يركب فى ستين من صلبه ثم ولى من بعده سليمان بن عبد الملك وهو أبو أيوب ويقال إنه كان نكاحاً شرهاً يأكل فى كل يوم نحواً من مائة رطل وأولاده أربعة عشر ذكراً . ثم ولى بعده « عمر ابن عبد العزيز » بن مروان ويكنى أبا حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ويسمى الأشج لأن فى وجهه شجة من دابة ضربته وأولاده كانوا أربعة عشر ذكراً وخمس بنات من أولاده عبد الملك وكان مات فى حياته ومنهم عبد الله وكان شجاعاً ولى العراقين لزيد بن الوليد واحتفر نهر أبى عمرو بالبصرة « يزيد بن عبد الملك » يكنى بأبى خالد وأولاده ثمانية ذكور وقيل عشرة منهم عبد الله بن يزيد متولد من سبعة خلفاء أبوه يزيد وجده عبد الملك وجد أبيه مروان وجدته لأبيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وأمه سعدى بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان وأم عبد الله بن عمر وهى بنت عمر بن الخطاب . ومنهم الوليد بن يزيد وقيل هشام بن عبد الملك يكنى أبا الوليد ولى الخلافة وأولاده عشرة ذكور وإناث منهم معاوية بن هشام وهو أبو عبد الرحمن ومنهم سليمان قتله السفاح « الوليد بن يزيد » بن عبد الملك ولى الخلافة وأولاده ثلاثة عشر ذكوراً وبنات « يزيد بن الوليد » بن عبد الملك كان يكنى أباخالد ولى الخلافة « إبراهيم بن الوليد » بن عبد الملك كان يكنى أبا أسحاق

« مروان » بن محمد الجعدى وكان يلقب بحمار الجزيرة لصبره على الحروب وهو أبو عبد الملك مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن العاص بن أبي أمية بن عبد شمس بن عبد مناف يلتقى هو والنبي صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف وهو آخر خلفاء بنى أمية وبانقضاء خلافته انقضت خلافة بنى أمية وأولاده عبد الله وعبيد الله هربا بعد قتله أما عبيد الله فقتله الحبشة وأما عبد الله فله عقب ويقال إنه أخذ وحبس ولم يزل محبوساً إلى أيام الرشيد فأخرج ضريراً ومات ببغداد قال فى بلغة الظرفاء وجميع خلفاء بنى أمية من لدن معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن محمد الجعدى أربعة عشر خليفة وكانت مدة خلافتهم إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام منها فتنة ابن الزبير تسع سنين واثنان وعشرون يوماً ثم تفرقت بنو أمية فى البلاد هرباً .

ومن كتاب الكرديوس فى أخبار المشرق والأندلوس: فأول من تأمر فى أرض الأندلس وملكها شيئاً بعد شىء عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى ابن مروان ثم بعده ولده هاشم ثم حكيم ثم عبد الرحمن ثم ابنه محمد ثم عبد الله ثم الحفيظ الناصر ثم بعده الحكم المنتصر ثم هاشم ثم قام عليهم قائم وادعى بأنه المهدى وبقيت فترة عظيمة الفتن ثم تولى سليمان بن الحكم بالأندلس على قبائل البربر الذين قطعوا الجزيرة مع موسى بن نصير فى بداية الأمر واستوطنوا البلاد وحاصروا هاشماً فى قرطبة ثم أرسل هاشم لصاحب سبتة وأحوازها وكان فيها وتملكها على بن حمود من الأدارسة فقطع إليه من سبتة فى جموع من البربر وأغاثه وهو على بن حمود بن ميمون بن على بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على فقطع البحر إلى إغاثته وتبعه بعض أهل الجزيرة مع قومه ونزل على سليمان وهو محاصر لهاشم فى قرطبة وقتله وقتل جموعه فادعى لنفسه على بن حمود وولى البيعة بالأندلس .

قال فى الأقنوم ذكر دولة بنى أمية :

أولهم سيدنا معاوية ... بويع فى (ما) بأول مايه
(يه) و (جيم) ثم (كه) ومضى ... (نط ووأو) ثم (يه) إذ قضى
ثم يزيد ابنه (جيم) و ( ما) ... بعد (حجب) و ( يه ) امحى
ثم معاوية ابنه تلا ... ( قيب ) من الأيام قد تجللا
ثمت مروان وعبد الله ... (صج) و (بازاى) لدى التناه
وفي (عج وهابا ) اندرج ... . . . . . . . . [1]
ابن الزبير فتبقى بعده ... (يب) و (دل) ثم (هاء) عده
ثم ابنه الوليد (طازاى كط) ... مدته وموته لما فرط
خمس وتسعون وخمسة شهور ... ونصف شهر ثم بعده ظهور
ملك سليمان بن عبد الملك ... عاش به مع سبع (وكد) قدحكى
وموته لما مضت ثمانيه ... تسعون مع شهر (ويج) تاليه
وعمر العدل وعامين بقى ... وخمسة و (يج) مات بعد فى
وستة من الشهور ثم (كو ) ... ثم ابن عمه يزيد قد حكوا
فى خمسة ومائة توفيا ... ثم هشام بعده قد وليا
ومات عام خمسة وعشرين ... ثم الوليد وتلاه فى الحين
ثمت إبراهيم فيها مروان ... وحينه فى مائة ولج حسان
وزال ملكهم عن الشرق إلى ... أندلس من بعد ذاك انتقلا
ولم يزل بها إلى أن ظهرا ... بها المرابطون فى (نت) يرى

---

(١) بياض في الأصل .

# نسب الخلفاء العباسيين

قال فى بلغة الظرفاء : أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح هو أبو أيوب عبد الله بن محمد على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ويلتقى هو والنبى صلى الله عليه وسلم فى عبد المطلب وهو أول خليفة من بنى العباس وأمه ريطة وقيل رابطة بنت عبد الله بن عبد الله بن المدان الحارثى وأولاده كان له ولد يسمى محمداً مات صغيراً «أبو جعفر المنصور» وهو أخو السفاح واسمه عبد الله بن محمد وأمه سلامة بنت بشير بن مزنة وأولاده محمد المهدى وجعفر وصالح وسليمان وعيسى ويعقوب والقاسم وعبد العزيز والعباس والغالية تولى منهم بعد أبيه أبو جعفر «محمد المهدى» ويكنى أبا عبد الله وهو محمد بن عبد الله المنصور وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن شهر بن يزيد الحميرى وأولاده هارون الرشيدى وموسى الهادى وعلى وعبيد الله ومنصور ويعقوب وإسحاق وإبراهيم والغالية والعباسة وسليمة «فموسى الهادى» هو أبو محمد موسى ابن محمد المهدى وأمه الخيزران وأولاده ستة ذكور هم عيسى وإسحاق وجعفر وعبد الله وإسحاق وموسى وكان عيسى أعمى وله بنات منهم أم عيسى تزوجها المأمون «هارون الرشيد» هو أبو محمد وقيل أبو جعفر هارون ابن محمد المهدى وأمه الخيزران وأولاده محمد الأمين وعبد الله المأمون ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى والقاسم وعلى وإسحاق وأبو العباس وأبو أيوب وأبو أحمد وبنات الواحدة من بناته تعد عشرة خلفها

كلهم لها محرم ، هارون أبوها والهادى عمها والمهدى جدها والمنصور جد أبيها والسفاح عم جدها والأمين والمأمون والمعتصم إخوتها والواثق والمتوكل أبناء أخيها « محمد الأمين » هو أبو العباس محمد بن هارون الرشيد وأمه أم الواحد وقيل أم العزيز بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ولقبها زبيدة وأولاده موسى وعبد الله وإبراهيم « عبد الله المأمون » هو أبو العباس وقيل أبو جعفر عبد الله بن هارون الرشيد وأمه مراجل أم ولد وأولاده محمد الأصغر وعبد الله وعلى والحسن وإسماعيل والفضل وموسى وإبراهيم ويعقوب والحسين وسليمان وجعفر وإسحاق وأحمد وهارون وعيسى وعدة بنات « المعتصم بالله » هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد وكان قوياً يقال إنه كان يحمل ألف رطل ويمشى بها خطوات فيما ذكر وكان أمياً لا يكتب وهو المثمن من اثنى عشر : هو الثامن من ولد العباس والثامن من ولد الخلفاء وولى سنة ثمانى عشرة ومائتين وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وتوفى وله ثمان وأربعون سنة وولد فى شعبان وهو الشهر الثامن من السنة وخلف ثمانية ذكور وثمان بنات وغزا ثمانى غزوات وخلف ثمانية آلاف دينار ومثلها دراهم وأولاده ثمانية ذكور وثمان بنات منهم هارون الواثق وجعفر المتوكل ومحمد أبو المستعين وهو الذى امتحن أحمد بن حنبل فى خلق القرآن فامتنع أن يقول ذلك فضربه عدة سياط « الواثق بالله » أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد أمه قراطيس أم ولد وأولاده محمد المهتدى وعبد الله وأحمد وإبراهيم وعائشة « جعفر المتوكل على الله » هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد وأمه تدكية اسمها شجاع وأولاده محمد المنتصر وقيل المستنصر وكان أحدب والمعتز وإبراهيم والمؤيد وأحمد المعتمد على الله وطلحة الموفق وإسماعيل وجماعة « محمد المنتصر » هو أبو جعفر محمد بن جعفر المتوكل وأمه

رومية تسمى حبشية وأولاده أربعة ذكور ( المستعين بالله ) هو أحمد ابن محمد بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد وأمه مخارق أم ولد وأولاده تسعة ذكور « المعتز بالله » هو أبو عبد الله محمد وقيل هو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه فتحية وأولاده عبد الله بن المعتز الشاعر ( المهتدى بالله ) هو أبو عبد الله محمد بن هرون الواثق ويقال له أبو جعفر وأمه رومية اسمها قرب وأولاده خمسة عشرة ذكراً « المعتمد على الله » هو أبو العباس أحمد وقيل أبو جعفر المتوكل وأمه فينان أم ولد وأولاده عبد العزيز وجعفر ومحمد وإسحاق « المعتضد بالله » وهو أبو العباس أحمد ابن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل وأمه ضرار أم ولد وأولاده المكتفى والمقتدر بالله والقاهر وهارون وإحدى عشرة بنتاً « المكتفى » هو أبو محمد على بن المعتضد بالله وأمه خاضع أم ولد وأولاده المكتفى بالله وثمانية ذكور « المقتدر بالله » هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله وأمه شعب أم ولد وأولاده الراضى والمتقى وإسحاق وعبد القادر والمطيع وعبدالواحد وعباس وهارون وعلى وأساق وعيسى وموسى وأبو العباس « القاهر بالله » هو أبو المنصور بن المعتضد بالله وأمه قبول أم ولد وأولاده الفضل وعبد الصمد وأبو القاسم عبد العزيز وهو ولى عهده « الراضى بالله » هو أبو العباس محمد بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أمه ظلوم أم ولد أولاده أبو جعفر أحمد والفضل وعبد الله « المقتى بالله » هو أبو إسحاق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتصم بالله وأمه خلوب « المستكفى بالله » هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله بن المعتضد وأمه غضى « المطيع بالله » هو أبو القاسم وقيل أبو العباس الفضل بن المقتدر بالله بن المعتضد وأمه مشعلة وأولاده أبو بكر الطائع وعبد العزيز وجعفر « الطائع لله » هو أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وأمه أم ولد « القادر بالله » هو أبو العباس أحمد

ابن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وأمه ثمين وأولاده أبو جعفر عبد الله ولى عهده « القائم بأمر الله » هو أبو جعفر عبد الله بن أحمد « القادر بالله » ابن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وأمه بدر الدجى أم ولد وأولاده أبو العباس محمد ذخيرة الدين وأبو القاسم عبدالله وهو ولى عهده « المقتدى بالله » هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بالله المعتضد بالله « المستظهر بالله » هو أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله المقتدى بالله ابن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وأولاده أبو منصور الفضل المسترشد بالله وأبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله « المسترشد بالله » هو أبو منصور الفضل بن أبى العباس أحمد المستظهر بالله « الراشد بالله » هو أبو جعفر بن المسترشد بالله « المقتفى لأمر الله » هو أبو عبد الله بن أحمد المستظهر بالله وأولاده منهم يوسف ولى عهده « المستنجد بالله » هو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله بن المستظهر بالله « المستضىء بنور الله » أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله.
تمت أخبار بنى العباس رضى الله عنه من لدن قيام أبى العباس السفاح إلى عام سبع وستين وخمسمائة « أحمد الناصر لدين الله » ابن المستضىء بنور الله خطب له بجامع الإسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة وخلافته سبع وأربعون سنة تمام الدولة العباسية من غير بلغة الظرفاء « الظاهر بالله » أبو نصر محمد بويع له فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ومات فى السنة المذكورة ثم بعده الإمام أبو جعفر « المستنصر بالله » أول خلافته سنة أربع وعشرين وستمائة وتوفي سنة أربعين وستمائة وولى بعده ولده الإمام أبو محمد عبد الله « المستعصم بالله » فى السنة المذكورة وهو المنصور آخر خلفاء بنى العباس وهو الذى خرج عليه التتر وقتلوه وأخذوا بغداد وذلك فى صفر سنة خمسين

وستمائة قال فى الأقنوم ذكر الدولة العباسية :

فى عام (قاب) منهم قــد وليا ... سفاحهم وفى ( لز ) توفيـا

وبعده المنصور مات فى (خنق) ... وبعده المهدى إلى ابنه (طــق)

من شره إدريس كان هاربا ... بنفسه لما توقى المغــربـا

ثم ابنه موسى ومات فى (عــق) ... وبعده هارون الرشيدى بقى

لعام (قضج) فابنه الأمــين ... أخوه قد خلفــه المأمــون

ل (نضج) ومات عام (خيره) ... وبعــده معتصم ل (كزره)

وبعده الواثق مات في (رلب) ... فالمتوكل ل ( رمز )وذهــب

وبعده ومات فيها المنتصــر ... فالمستعين بعد فى (رنــب) قبر

وبعده المعتز (نهر) المهتــدى ... بعــد (1) للمعتمد

وقبل موته بدا القــرامطة ... بسنة على أمــور ساقطــة

معتضد (حرب) وبعد المكتفى ... لعام خمسة وسبعين خــفى

وبعده الغالب (رمض) ورجع ... من بعده المقتدر الذى خلــع

وعام (سين) ثانياً قد خلعــا ... ثم أخوه القادر الأمر دعــا

فلم يجب ثم أتوا للمقتــدر ... به بالانقيــاد منه يعتــذر

وعــاد للخلافــة المقتدر ... ثالثتــه لعكس معــاد القاهر

وسنة ونصفهــا قــد وليا ... وفى (لط) فى سجنه توفيا

وبعده الراضى وفى (كط) قضا ... والمتقى فى (لج) ملكه انقضا

وبعده وخلــع المــكتــفى ... سنة ( لد ) وفى ( لج ) توفى

ثم المطيع نفسه قــد خلعــا ... مملكا سنة ( جص ) الطائعــا

ولده فعل أبيه فى ( أســف ) ... فعل ثم فى (ضح) أردى التلف

وسلم الأمر إلى القــادر فى ... سنة كتب أجل العمر وفى

وبعده القــائم أربعينــا ... ملك مع خمس من السنينا

---

(1) بياض بالاصل .

ومات فى (جر) و (نفز) للمقتدى مستظهر ( ثيب ) وللمسترشد

(كط) وعام (لثلب) للراشد والمقتفى ( نـــد) وللمستنجد

(خوص) وبعده المستـــــضى وبعهده الناصر فى ( كنج ) فع

وكان مبدأ التتار أولا العـــرى فى أيامه ساء الملا

وبعده فى تسعة من أشهـــر حان الممات بعد ملك الظاهر

وضم لمنصور هو المنتصر معتصم (نه) أحمـــد المنتصر

فقـــد للستين ثم الحاكـــم أول من ملك مصر منهـــم

ومات فى إحدى وسبعمائة ثم ابنه أبو الربيع مـــا فتى

لعام (دل) ثم مات عام (ذام) ثم ابنه الحاكم نحو (يـــد) عام

ومات فى (زتر) و (صج) المعتضد للمتوكل ( يـــو) خلع عهد

والملك فى أولاده لصلبـــه فى خمسة وذاك مختص به

وبعده المعتصم الذى خلـــع عشر ويوماً ملكه لكن رجـــع

والمتـــوكل أعيـــد ثانيـــاً وعام (ذبد) بعـــد ذاك خليـــا

والمتـــوكل اعيـــد ثالثـــه ومات فى ( حظ ) وكان وارثه

المستعين أحد البنينـــا له ومات في ( لج ) سنينـــا

معتضد في (مد) و (نه) مستكفى وحمزة ( نط ) و (مـــا) توفى

ثم أخـــوه بعـــده المستنجد وهو الأخير إذ رماه الأمـــد

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه الجميل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم على يد كاتبه العبد الذليل المقر بالقصور وعدم التحصيل محمد بن أحمد بن أبى القاسم التوانى غفر الله له ولوالديه بمنه وكرمـــه آمـــين .

وكان الفراغ من كتابة هذا الكتاب الجليل بعد مغرب ليلة الجمعة رابع ذى الحجة من سنة ثلاث وتسعين بعد المائتين والألف من هجرة من له العز والشرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة بليغة فى تقريظ الكتاب

الحمد لله الذى خص أئمة المسلمين بكونهم من قريش ما أمكن إلى ذلك سبيل وإن تعذر علينا اعتبر كونهم من بنى إسمعيل وإلا فبحسب الإمكان والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا محمد أشرف بنى عدنان وعلى آله وأصحابه المجاهدين فى الله حق جهاده القويم . المستمسكين بمنهاج الشرع الواضح المستقيم . أما بعد : فقد اطلعت على كتاب الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية ، تأليف الإمام المحدث الكبير ، صاحب الصيت العظيم الشهير ، السيد محمد بن على السنوسى ، من اصطفاه الله بفتحه القدوسى . فإذا هو كتاب جميل نفيس ، اشتمل على خلاصة أخبار أئمة أبناء مولانا الإمام السيد إدريس . وهو السيد إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وابن فاطمة البتول بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها وعن جميع ذريتها الطاهرة ، ذات المزايا العظيمة الظاهرة .

واشتمل هذا الكتاب أيضاً على زبدة نافعة من أخبار من ملك المغرب من سائر الأشراف وغيرهم ، وعلى أول ما فتح من المغرب فى خلافة

عثمان بن عفان رضى الله عنه . وأول ذلك أول فتح إفريقية ، فى خلافة عثمان على يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخى أمير المؤمنين عثمان ابن عفان من الرضاعة رضى الله عنهما ؛ ثم ذكر فتوح عقبة بن نافع وغيره بعد ذلك على نوع الإيجاز والاختصار النافع ، ثم أشبع الكلام على دولة الأدارسة وفروعهم فى البلاد المغربية وما جددوه من الدين فيها وذكر سبب موت السيد إدريس الأكبر ، وسبب موت نجله إدريس الأزهر ، بانى مدينة فاس .

وقد أجاد فى ذلك كله وأفاد وأبان مسائل تاريخية ينشرح بتتبع أنواعها الفؤاد ثم جعل لكتابه هذا خاتمة مختصرة ذكر فيها الخلفاء الأربعة ثم خامسهم سيدنا الحسن السبط بن على رضى الله عنهما ، ثم ذكر فيها خلفاء بنى أمية جميعاً نثراً ونظماً ، ثم أتبعهم بخلفاء بنى العباس كذلك نثراً ونظماً .

وبالجملة فهو كتاب تاريخ وكتاب علم نافع جمعه إمام بحر علم تتفجر من صدره ينابيع الحكم والعلوم ومن اعتكف على مصنفاته نال منها كل ما يشتهيه العاقل من جميع ما يروم . نفعنا الله ببركاته وبمؤلفاته . وجعلنا من خواص من انتفع بعلمه واجتنى أطيب ثمراته ، وبالله تعالى التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

قاله بلسانه وقيده ببنانه خادم نشر العلم بالحرمين الشريفين وبالأزهر المعمور ، محمد حبيب الله بن الشيخ سيدى عبد الله بن مايابى ، الجكنى نسبا ، الشنقيطى إقليماً ، المدنى مهاجراً ، أعاده الله لها على المراد ، بجاه سيدنا محمد خير العباد ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى يوم التناد . انسلاخ شعبان سنة ١٣٤٩ هـ .

# فهرس

الصفحة

الصفحة

طبع على

مطابع دار الكتاب اللبناني

ص. ب. ٣١٧٦

بيروت – لبنان